

صناعة الحكمة

إذا طلع نجم الهمّة في ظلام ليل البطالة،
وردفه قمر العزيمة، أشرقت أرض القلب
بنور ربها

إلى
ديلي حضان

صناعة الهممة

إذا طلع نجم الهممة في ظلام ليل البطالة،
وردفه قمر العزيمة، أشرقت أرض القلب بنور ربها

د. ليلى حمدان



من إصدارات مجلة يقظة

؛

إلى تلك الروح المؤمنة التي تحفنا بعطائها والامتنان ...

الفهرس

4	المقدمة.....
6	صناعة الهممة أول مهمة.....
15	مفاهيم أساسية لصناعة الهممة.....
27	الإيمان: أولى الأسرار في صناعة الهممة.....
40	معرفة النفس البشرية.....
54	أسرار الصحة النفسية.....
78	النفس السوية والنفس المضطربة وعوائق الارتقاء.....
93	معسكر التدريب لصناعة الهممة.....
108	معسكرات البذل والتميز في صناعة الهممة.....
116	حديقة صناعة الهممة.....
149	نماذج لعظم الهممة.....
165	خلاصات مودع عن صناعة الهممة.....

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إن التدبّر في أحوال أمتنا الإسلامية لا بد أن يصل لتشخيص حال أبنائها، فكما يكون حال الفرد من هذه الأمة يكون حالها، فإنما هذه الأمة كجسد واحد، يتألف من خلايا تتصل ببعضها اتصالاً حياتياً ليؤدي كل عضو فيها وظيفته. فإن مرضت هذه الخلايا أو نقصها المدد الذي تعيش بفضلها وتتجدد، تأثر الجسد برمته وكلما اشتد بها المرض انعكس أثره عجزاً وسقوطاً.

لذلك فإن أول سرّ في صناعة الأمم هو صناعة الأفراد وصقل هممهم وتربيتهم التربية التي تليق بهم كمسلمين مؤمنين محسنين. وأول أولوية في نهضة الأمم حين تتعثر مسيرتها، هو إصلاح أبنائها الذين بصلاحتهم تصلح مجتمعاتهم وأمتهم وديانهم وآخرتهم. ولا أفضل سبيل لرقّي الفرد والمجتمع والأمة من صناعة الهمة، فلم يرتفع ذكر من سبق إلا بفضل الله ثم تلك الهمم المسابقة التي ازدانوا بها، ولم نشاهد مجدداً عبر الأزمنة والعصور إلا كان ثمرة عظم الهمة وعلوها. وكذلك قاد حركات التغيير والتحرير، أصحاب الهمم العالية العظيمة، وهو أحوج ما نحتاجه اليوم لتنهض أمتنا وتسترجع مكانتها كخير أمة أخرجت للناس.

وفي هذا الكتاب سنحاول سبر أغوار فن صناعة الهمة لعننا نقدم دليلاً نظرياً وعملياً في ذات الوقت لكل مسلم ومسلمة يسعى للارتقاء بنفسه وبناء ذاته وتطويرها مستعنياً بإيمانه، حنيفاً أبيعاً منتصراً.

ليلي حمدان

صناعة الهمة أول مهمة

تمر الأمة الإسلامية اليوم بأحلك حقبة عرفتها على طول امتداد مسيرتها، لا أبالغ إن قلت أنها لا تقل سوءاً عن محنة التتار، ذلك أن الخطر الذي يهدد آمال نهوضها، لم ينحسر في عدو خارجي يعتدي وينهب ويسفك الدماء، بل لأن الخطر تطور لداء الانهزامية وضعف الهمة الذي تسلل إلى داخل نفوس أبنائها وانتقل بشكل عدوى ووجد له مرتعاً وحضناً. وهذه مصيبة كبرى أن يصل المسلمون لمرحلة الرضا بالدينية والتعايش مع الضعف والقبول بالهزيمة وانطفاء جذوة علو الهمة وعزيمة النفس، والأخطر من ذلك أن تتوجه الهمم نحو سفاسف الأمور وتنشغل بالتفاهات وكل ما يهدم الإنسان والأمة.

وإنه لمن تمام الفشل لكل أمة أن تموت عزائم أبنائها فيعجزون عن النهوض بها، أن تنهار تلك الروح المثابرة التي تتحدى الصعاب لأجل الوصول لأسمى الأهداف، أن تنطفأ جذوة الإرادة وشغف المنافسة للعلياء، وكيف يمكن لأمة أن تقوم وعناصرها مشتتة تائهة، وطاقتها مبددة مستنزفة، قد أظلم داخلها كما أظلم ما حولها، تماماً كحال بيت في وسط الظلام لكن مصباحه انطفأ، فجمع بين ظلام الخارج والداخل، فأى حياة ستكون فيه!

ولا شك أن ما يعاينه المسلم منذ صغره إلى اشتداد عوده من النوازل والأزمات ومشاهد القهر والبؤس تتوالى على أمته، له تأثير وتداعيات معتبرة، لكن الفطرة تقتضي بأن يكون له التأثير الإيجابي والتداعيات المحفزة على صناعة التغيير، كما يقول المثل، الضربات القوية تهشم الزجاج لكنها تصقل الحديد، ونحن أمة معدنها صلب لا ينكسر، لكننا فقدنا المعرفة بذاتنا وأسباب قوتنا فكيف سنخرج من متاهاتنا؟!

ولعل ما يزيد الطين بلة تلك النفسيات النكدة المنتشرة في كل مشهد والتي لا تجيد سوى الشكوى والنواح، وفي أحسن الأحوال توجيه أصابع الاتهام لأحد ما أو ظرف من الظروف لعلها تحقن ضميرها بمخدر إلى حين وتزيح عن كاهلها ولو القليل من أثقال المسؤولية. ومع ذلك لو دققنا النظر لأبصرنا في زاوية من المشهد قدوة مبهرة!

ثم من يتأمل في حجم الميراث الإسلامي ونماذج النجاح وصناعة المهمة الرائعة التي تركها لنا السابقون، يقف مذهولاً ليس لحالة الضعف التي تعيشها الأمة اليوم - بحد ذاتها- بل للتفريط البشع بأسباب القوة التي تمتلكها هذه الأمة.

ومخطأ من ظن أن صلاح الأمة سبب أول في صلاح الفرد، بل العكس تماماً، يبدأ صلاح الأمة من صلاح الفرد، من نجاح هذا الفرد ومن قدرته على استجماع نفسه للنهوض لتنهض أمته. مع أن صلاح الأمة ضمان لاستمرار صلاح الأجيال، ومن تدبر في التاريخ أدرك كيف صنع مجرد عدد من الرجال تاريخاً مبهرًا من الانتصارات والحضارة الماجدة، كان الشخص الواحد منهم بحجم أمة! كل ذلك ثمرة صناعة الهمة.

يقول الشيخ محمد الخضر حسين رحمه الله، عن فضل عِظَم الهمة في موسوعة أعماله الكاملة: "يسمو هذا الخلق بصاحبه، فيتوجه به إلى النهايات من معالي الأمور، فهو الذي ينهض بالضعيف يضطهد أو يزدري، فإذا هو عزيز كريم. وهو الذي يرفع القوم من سقوط، ويبدلهم بالخمول نباهة، وبالاضطهاد حرية، وبالطاعة العمياء شجاعة أدبية.

هذا الخلق هو الذي يجمي الجماعة من أن تتملق خصمها، وتسلل يدها من أسباب نجاحها ومنعتها. أما صغير الهمة، فإنه يبصر بخصومه في قوة وسطوة، فيذوب أمامهم رهبة، ويترك إليهم رأسه حطة، ثم لا يلبث أن يسير في ريجهم، ويسابق إلى حيث تنحط أهواؤهم".

لقد حفرت في ذاكرتي العديد من العبارات التي سمعتها على ألسنة بعض الغربيين، ولعل أبرزها على الإطلاق، وصف تلك العالمة لقوة المسلمين الروحية، حيث قالت بعفوية وصدق: "يمتلك المسلمون قوة روحية عجيبة لها القدرة على انتشالهم من أسوأ الظروف كما يشهد بذلك تاريخهم. وهو ما ينقصنا نحن الغرب رغم أننا تفوقنا مادياً بشكل لم يبلغه المسلمون. لنكتشف في الأخير أن القوة الحقيقية هي قوة الروح لا المادة".

وبالفعل فإن لدى المسلمين قوة الروح التي هي سر النجاح الأول لكل فرد وأمة، وإنما فرطنا فيها لضجيج الدنيا وتشويش الباطل ومكر القريب والبعيد، وكل ما في الأمر أننا

بحاجة لاستثمار هذه القوة على أكمل وجه وأحسنه، وأن نخرج من دائرة التيه والعبث لسبيل الحكمة والعقل الراشد، حتى نرتقي في حياتنا الدنيوية والأخروية. لقد علمني التاريخ أن القوة تكمن في قلب حامل السيف لا في سيفه، فاعتنوا بقوة قلوبكم.

وإنه لمؤسف بشدة أن نشاهد المسلم الذي يؤمن أن الإسلام يصنع الإنسان ويهذبه ويصقله ويجعل منه نموذجًا فريدًا للنجاح، هو نفسه من يكسل ويسوّف ويعجز عن تقديم هذا النموذج في حياته ولمن بعده من أجيال.

يجلس في مقاعد المتفرجين ينتظر أن ينزل عليه الحل من السماء، وينسى أن بيده هو فقط أن يصنع الإنجاز بفضل الله ومعيته. مع أنه سليل أمة كان نبيها عليه الصلاة والسلام يعلم أنه منتصر بنص الوحي من السماء، ورغم ذلك لم يزهّد في جمع الأسباب لصناعة النصر ولم يفتّر عن الابتغال لربه يسأله بإلحاح التوفيق وإنجاز الوعد، كما شاهدنا ذلك في معركة بدر الكبرى ومواقع أخرى مهيبة في سيرة المعلم الأول عليه أفضل الصلاة والسلام. قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) (الأحزاب: 21).

قال ابن حزم رحمه الله: "من أراد خير الآخرة، وحكمة الدنيا، وعدل السيرة، والاحتواء على محاسن الأخلاق - كلها - واستحقاق الفضائل بأسرها؛ فليقتد بمحمد رسول الله ﷺ، وليستعمل أخلاقه، وسيره ما أمكنه، أعاننا الله على الاتساء به، بمنه، آمين¹".

ومع أن أغلب المراقبين لحال الأمة يتفقون على أن صناعة الهمة هي الحل وهي البداية. إلا أن تحقيق هذه المهمة لم يحظ بالعناية الكافية التي تستحقها. سواء من ناحية التأليف أو التطبيق.

ومع توفر الكتابات بشأن علو الهمة وتحفيز النفوس على بلوغ المراتب العلى وحسن الإدارة والبناء للذات، إلا أن أغلب هذه المراجع تعني فقط بجانب العبادات، وتغفل عن أحوال المسلم مع دنياه، مع أن الأمرين مرتبطان بشكل وطيد، والعمل عبادة، فالعابد التقوي يترجم بركات استقامته بنجاح آخر في حياته ودنياه ولا نجاح في الدنيا دون استقامة، لأنه لا وزن

(¹) الأخلاق والسير، (ص 91).

لها في موازين الأعمال عند الله سبحانه. بل إن الإصرار على التفريق بين النجاح الديني والديني خطأ فادح يقع فيه الدعاة، لأن الإيمان يوصل الإنسان لأفضل مستويات طاقته الإنتاجية، فيجعل منه عنصرًا بناءً ومخلصًا يستقر مع عطائه نسيج المجتمع وتبني بذله ومثابرتة لبنات حضارة الأمة المسلمة. وأقرب مثال على ذلك حضارة الإسلام منذ عصر النبوة إلى عصر الخلفاء الراشدين إلى عصور الدول الإسلامية الكبرى، كانت جميعها تنعم بمساهمة فعالة من الأفراد في صناعة الحضارة وأمجاد الأمة.

بلغنا السما مجدًا وجودًا وسؤددًا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرًا

وكلما تبهرت في الكتابات بشأن صناعة الهممة، أجد بلا منازع اسم ابن القيم على قائمة الكتاب المبهرين الذين لم يألوا جهدًا في توريث العلوم والخبرات لأجيال المسلمين بهمة قدوة في مختلف الأزمنة والأمصار، فبرع ليس فقط في تحفيز وشحن الهمم وإبراز أهمية علو الهممة بل برع كذلك في تقديم الأسرار اللازم الإحاطة بها، لتحقيق صناعة هذه الهممة، وهو ما يندر في أغلب الكتابات في هذا الميدان، فتجد في نتاج ابن القيم دراسة معمقة عن أحوال النفس وسير أغوارها وصفاتها ودرجاتها وأنواعها وسبل نمائها وتركيتها وتحليل مفصل لمختلف العقبات التي تتحدى مسيرتها بما يغني عن غيره من مراجع بهذا الشأن.

وتبرز أهمية كتابات هذا العالم في أنها تقدم خريطة لصحة النفس وأفضل عطاء لها، تبدأ من معرفة الله والإيمان به ومعرفة النفس ومعرفة الناس، لينتقل العبد إلى استغلال الحياة الدنيا واستثمار نعم الله عليه وفق شرع الله وفطرته، ثم التوافق مع الحق لا الخلق، والإيمان الصادق وبناء الحياة الطيبة، ثم ترجمة هذه المعرفة إلى الإنتاج والعمل الصالح والصبر والدعوة والمجاهدة لينعم الإنسان بقلب سليم وحياة طيبة في الدنيا والآخرة.

فابن القيم هو طبيب قلوب، من قدم رافدًا مهمًا جدًا من روافد العطاء العلمي والإسهامات في تاريخ الطب النفسي. لقد قدم نموذجًا شاملاً لتفسير سلوك الإنسان

وفهمه، يمكن أن نكتشف براعته في عدد من كتبه كزاد المعاد، ومدارج السالكين، والجواب الكافي ويعرف أيضا بالداء والدواء، وإغاثة اللهفان، والروح، وشفاء العليل والفوائد وعدة الصابرين.

ومن ينظر في نتاج الأمة الإسلامية في هذا الباب المصيري والحاسم في صناعة الإنسان والأمة، يدرك من أين أوتينا في عصرنا الحديث، فإن نوعية التأليف التي تشغل أبناء أي أمة هي التي تعكس اهتماماتهم ودرجة وعيهم، لا حجم التأليف بشكل عام، وللأسف فإن حجم الاهتمام بما يبني الإنسان ويرتقي بالذات ويصنع الهمة ضعيف بشكل لافت رغم أنه الباب الأول الذي يجب على كل مسلم أن يطرقه.

وحين نتكلم عن التأليف في باب الهمة، سنذكر بلا شك كتاب "صلاح الأمة في علو الهمة"، للشيخ: سيد العفاني، ويقع في سبع مجلدات. من تقديم الشيخ محمد بن إسماعيل المقدم، الذي بدوره له كتاب بعنوان "علو الهمة" في جزء واحد.

كما نجد في هذا الشأن بسرد مختلف، كتاب حياتك من الفشل إلى النجاح لسيد صديق عبد الفتاح، والذي عرضه بشكل قصصي لنماذج الهمم العصامية ونجاحاتهم التي انطلقت من لا شيء، مسلطاً الضوء على نماذج مهمة للمعاقين.

ولدينا كتاب الهمة طريق إلى القمة، لمحمد بن حسن بن عقيل موسى، الذي يقول في مقدمته: "وإن مما دعاني لتأليف هذا المبحث ندرة من تكلم فيه وأوضحه ولم أر فيه مصنفاً مستقلاً ولا أزعجني أعطيته حقه ولكنني حاولت دخول هذا المضمار والتطفل على هذا الشأن والله المسؤول بالإتمام وعليه التكلان".

وهذه أمثلة للكتب التي تناولت موضوع الهمة في المكتبة العربية والإسلامية، على سبيل المثال لا الحصر.

ولللأسف وبالمقارنة فقد اهتم الكتاب الغربيون كثيراً ومطوياً بباب الهمة، لما أدركوه من أهمية صناعة الهمم وتحفيزها ولعل هذا ما يفسر جزئياً نهضةهم المادية في العقود الأخيرة. ولذلك أرى من المهم الاستشهاد ببعض خلاصات الغرب في هذا المجال، وتدبر استقرارات العقل البشري من خلال التجربة لما ينبغي أن يراعيه المرء وما يلزمه لينجح في صناعة الهمة، حتى لا يفوتنا شيء في هذه الصناعة المهمة. والحكمة ضالة المؤمن، أنى

وجدها فهو أولى بهما، قال تعالى: (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوْا) (المائدة:8). وقال بعض الفقهاء: “كل ما لا يتعارض مع الإسلام فهو يندرج تحته”.
ومن ذلك قول الشاعر:

لا تحقرن الرأي وهو موافق حكم الصواب إذا أتى من ناقص
فالدّر وهو أعز شيء يقتنى ما حط قيمته هوان الغائص

يقول آلبرت أينشتاين: “لا يمكن حل المشكلات الكبيرة التي تواجهنا ونحن على ذات مستوى التفكير الذي كنا عليه عندما صنعنا هذه المشكلات”، وفي هذا إشارة واضحة لضرورة الانتقال من طور التفكير السطحي إلى التفكير الأعمق والأجدي، على أساس المبادئ والقيم التي بفضلها تحل المشاكل ويتم تجاوزها. وهي تحديداً رحلة التغيير والارتقاء الفكري التي يجب أن نخوضها لتجاوز قصورنا وضعفنا. إنها رحلة الإعداد لصناعة الأعماد.

ويقول الدكتور ستيفن كوفي أن تطوير الذات وشحن القدرات مثل البنزين بالنسبة للسيارة، فلا يمكن لشخص أن يتنقل بسيارته دون أن يزودها بالوقود.

وستيفن كوفي الذي وصفته مجلة تايم على أنه واحد من 25 أمريكياً الأكثر تأثيراً في حياة الآخرين، هو صاحب كتاب “العادات السبع للناس الأكثر فعالية”، حيث تضمن دروساً فعالة حول تغيير الشخصية وهو من أشهر كتب تطوير الذات وصلت مبيعاته لأكثر من خمسة عشر مليون نسخة بثمانية وثلاثين لغة في كل أنحاء العالم وحظي باهتمام شعبي كبير، وصنف كأكثر كتب الإدارة تأثيراً على مدار التاريخ.

وهو أيضاً صاحب كتاب العادة الثامنة الذي صنف كملحق لكتابه العادات السبع للناس الأكثر فاعلية.

ومن الكتب الغربية المصنفة في بناء الذات وصناعة الهمّة، “الراهب الذي باع سيارته الفيراري” للكاتب الكندي من أصل هندي، “روبين شارما”، وهو من أشهر كتب تطوير الذات تمت ترجمته إلى ما يقرب من سبعين لغة مع أن سرده يعتمد أساساً على الخيال.

وقد أدركت الإدارة الأمريكية أهمية صناعة الهمة في نهضتها، فكانت عناية الرئيس باراك أوباما ملفتة بكتاب “النجزة” للكاتبين ريتشارد ثالر وكاس سونستين. حيث أقام معهدًا مخصصًا لتدريس الكتاب وأسماه على اسمه، معهد “النجزة” Nudge ”لأجل تحقيق التغيير الإيجابي في المجتمع الأمريكي وفق المنهجية التي طرحها الكاتبان.

وحصل ريتشارد ثالر على جائزة نوبل في الإقتصاد لكتابه هذا حيث تدور أفكاره حول التغيير وفلسفته، مسلطاً الضوء على أسباب القرارات الخاطئة في حياتنا، مثل الموافقة على وضع سيئ نعيشه ولا نسعى لتغييره. وكيف أن لأفعال صغيرة وبسيطة ومستمرة أن تغير حياتنا للأفضل.

وهذا الكتاب الذي صنف من الكتب المهمة جدًا في المكتبات الأمريكية، أوصى بها بيل جيتس رجل الأعمال والمبرمج الأمريكي ومؤسس شركة مايكروسوفت الذي اشتهر بثروته التي صنعها بنفسه.

ولعل من أهم الكتب في باب بناء الذات في التأليف الغربي كتاب السطحيون the shallows لنيكولاس كار وهو كتاب لم يحظ بترجمة للغه العربية إلا أنه تناول موضوعًا خطيرًا وهامًا جدًا وهو تأثير الأنترنت على حياة الناس والأخطار التي تنتج عن ذلك موضوعًا كيف حوّل الأنترنت الجماهير إلى سطحيين.

ومع أن ما عرضته هذه الكتب يعد مهما في صناعة الهمة إلا أن أبرز هذه الخلاصات قد سبق بها المسلمون منذ زمن بعيد، بل تفوقوا على أطروحات الغرب بالنظر لمستوى الأهمية لأن صناعتهم للهمة كانت تتعدى النجاح الدنيوي إلى الأخروي، وكانت تستلهم أنوارها من الوحيين، هذا كي لا نتهم بالجهل والتخلف، بل بالتقصير والغفلة وهو جرم أكبر في نظري.

ولا بد أن صناعة الهمة على أنوار الإيمان واليقين لا تقارن البتة بصناعة الهمة على أنوار الطاقة المادية البحتة. لأن هناك أسرارًا ومعية إلهية وفضلاً ربانيًا يحسم المشاهد حسماً لا تقوى عليه عقول البشر. لا يحوزه إلا من عرف عظمة الله سبحانه جل في علاه.

ولهذا سنحاول خلال هذا الطرح أن نتناول موضوع صناعة الهمة بعمق وتفصيل يستمد أنواره من أعظم مصدرين: القرآن والسنة، ونعضده بتجارب ملهمة وقصص نجاحات مبهرة

وأسرار تتناسب وكل طاقة بشرية وكل خصائص نفسية. ذلك أن هدف المؤمن ليس مجرد نجاح دنيوي، بل نجاح أكبر وأعظم خلف خط الموت مع الخالدين.
قال ابن نباتة رحمه الله:

حاول جسيمات الأمور ولا تقل إن المحامد والعلی أرزاق
وارغب بنفسك أن تكون مقصراً عن غاية في الطلاب سباق

ولا يقولن قائل، لا يمكن لمفلس همة أن يصنع همة، قال الله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (الرعد:11) وقال سبحانه (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَكَاهَا) (الشمس: 9).
وقال رسول الله ﷺ في الحديث الذي حسنه الألباني: "إنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلم ومن يتحر الخير يعطه ومن يتوق الشر يوقه". وقال العلامة ابن القيم رحمه الله في الدرر الكامنة: "لا بد للسالك من همة تسيّره وترقيه وعلم يبصره ويهديه".

فصناعة الهمة مهمة أولى اليوم للنهوض بالفرد والأمة، وسنتناول الحديث عن أسرار هذه الصناعة، ليكون في ذلك بعثاً للعزائم وتغييراً لحالنا لما يليق بنا كأمة مسلمة.

وفي الختام لست مطالباً بأن تكون أفضل الناس، بل أن تكون أفضل "أنت". وهذا ما سنركز عليه في طرحنا، أن نستخرج أفضل ما عندك يحدونا في ذلك (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) (العنكبوت: 69).

فردد "يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين"، إلى لقاء الحلقة المقبلة: "مفاهيم أساسية لصناعة الهمة".

مفاهيم أساسية لصناعة الهمة

لا بد لخوض غمار أي فنّ أو علم من التعرف على ماهيته وماهية المفاهيم الأساسية التي يقوم عليها، كما أن لعلاج الجسد نحتاج للإحاطة بأجهزته وأنسجته المختلفة والعلاقة بينها وقوانين النظام الذي يجمعها، وكذلك لتصليح آلة لا بد أن نتعلم مكوناتها وقطعها المتصلة وطريقة عملها وتشغيلها، وعلى هذا المنهج سنقوم بتشريح هذه الهمة لنحسن فهمها والخروج بدليل يتناسب وطبيعة كل فرد وطاقاته وظروفه وطموحاته التي يجب أن تكون عالية سامقة وهو باختصار دليل صناعة الهمة.

بداية: ما مفهوم الهمة وماذا نقصد بهذه الهمة؟

يتردد هذا المصطلح وتتردد معه التعاريف التي تصب في ذات المعنى، وإن تأملتها يُعد أول خطوة في صناعة الهمة، لأنها تقدم أول نقطة ارتكاز سننطلق منها، وتبدرها تنكشف لنا طبيعة المهمة. والهمة هي توأم العلم وقسيمه وشريكه في صناعة عطاء الفرد والمجد وانبعاث الأمة، إنها بتعبير آخر، “القوة العلمية” أو “الإرادة”، فهذه مرادفات لمصطلح الهمة. وهذا ما يفسر لماذا يلهث الكثير من الناس خلف الأدنى من الأمور والسفاسف، فمرجع ذلك فساد العلم وكثرة الجهل. والعكس صحيح. والعلاقة طردية بين العلم وصحة العزيمة وقوة الإرادة، فكلما انتفى الجهل طلب الإنسان معالي الأمور وارتقى إلى مراتب النجباء السعداء.

والهمّ: ما همّ به من أمر ليفعل.

والهمة: هي الباعث على الفعل، وتوصف بعلو أو سفول.

يقول الشيخ مُحمَّد الخضر حسين: “علو الهمة هو استصغار ما دون النهاية من معالي الأمور”. “بمعنى أن يطلب المرء من كل أمر أعلاه وأقصاه، ويستصغر كل ما وصل إليه إن كان هناك ما هو فوقه أو أعلى منه”.

ويقول ابن الجوزي في صيد الخاطر: “هي خروج النفس إلى غاية كمالها الممكن لها في العلم والعمل”. وقال أيضا: “نبغي لمن له أنفة أن يأنف التقصير الممكن دفعه عن النفس، فلو

كانت النبوة - مثلاً - تأتي بالكسب لم يجز له أن يرضى بالولاية، أو تصور أن يكون خليفة لم يقنع بإمارة، ولو صح أن يكون ملكاً لم يرض أن يكون بشراً، والمقصود أن ينتهي بالنفس إلى كمالها الممكن في العلم والعمل.”

وقال الجرجاني في التعريفات: “أهم هو عقد القلب على فعل شيء قبل أن يفعل، من خير أو شر”. وقال ابن القيم في مدارج السالكين: “والهممة فعلة من أهم وهو مبدأ الإرادة ولكن خصوصاً بنهاية الإرادة، فالهم مبدؤها والهممة نهايتها”. وقال شيخه ابن تيمية: “العامّة تقول: قيمة كل امرئ ما يحسن، والخاصة تقول: قيمة كل امرئ ما يطلب”. أي همته ومقصده.

والهممة نصف المروءة.

ولا تجلس إلى أهل الدنيا
فإن خلائق السفهاء تعدي

والهممة كما عرفها بعضهم هي النية الصادقة والعزيمة الجازمة والإرادة القوية والرفيعة، والرغبة الأكيدة في التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل. وعكس علو الهممة كما قال الجاحظ في تهذيب الأخلاق هو: “دنو الهممة وهو ضعف النفس عن طلب المراتب العالية، وقصور الأمل عن بلوغ الغايات، واستكثار اليسير من الفضائل، واستعظام القليل من العطايا والاعتداد به، والرضا بأوساط الأمور وصغائرها”.

وهي إيثار الدعة والرضا بالدون والقعود عن معالي الأمور. وهي في الواقع هزيمة النفس والرضا بالذل والخنوع والحرمان. فأبي عاقل يرضى لنفسه هذه المهانة!

ويقول في وصف ذلك حاتم الطائي:

يرى الحَمَصَ تعديباً، وإن يلقَ شَبَعَةً
يَبِثُّ قَلْبُهُ، من قَلَّةِ الهمِّ، مُبَهَمًا
لَحَى اللهَ صُغْلوكًا مُنَاهُ وَهْمُهُ

مِنَ الْعَيْشِ أَنْ يَلْقَى لَبُوسًا وَمَطْعَمًا
يَنَامُ الضَّحَى، حَتَّى إِذَا لَيْلُهُ اسْتَوَى
تَنَبَّهَ مَثْلُوجَ الْفؤَادِ، مُورَمًا
مُقِيمًا مَعَ الْمُثْرَيْنِ، لَيْسَ بِيَارِحٍ
إِذَا كَانَ جَدْوَى مِنْ طَعَامٍ وَمَجْثِمًا

وصدق الشاعر حين قال:

وما نيل المطالب بالتمني
ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

وكل بني آدم تولد همته معه وإنما تقصر بعض الهمم في بعض الأوقات والظروف فإن تم إنعاشها وتحريضها انبعثت من جديد! قال ابن الجوزي: “وإنما تقصر بعض الهمم في بعض الأوقات بسبب عجز أو كسل أو ركون إلى وسوسة الشيطان وركوب الهوى وتسويل النفس الأمانة بالسوء، فهنا تحتاج الهمة إلى إيقاظ وتنبية وتذكير، برضا من تطلب؟ وفي أي نعيم ترغب؟ ومن أي عقاب ترهب؟ كما فعل ذلك البطل الذي لا نعرف اسمه لكنه حسبه أن الله يعلمه وهو وحده الذي يثيبه”.

كذلك قد تكون الهمة في غير محلها الصحيح فينشغل المرء بما يضره ولا ينفعه، ونبصر ذلك كثيرًا مع أهل البدع والانحراف، فيبذل جهده وطاقته وكل ما يملك في باطل لسوء الفهم والجهل وظلم النفس.

أقسام الناس مع الهمة

وبعد الإحاطة علمًا بمفهوم الهمة نتحول إلى أقسام الناس مع هذه الهمة، فالناس مختلفون في تصنيف الهمم، بين علو وسفول وبين كبير وصغير، وعلى قدر تفاوت الهمم والإرادات تتفاوت مقامات الخلق في الدنيا والآخرة. فأعلاهم همة أبلغهم لما يريد، وأكثرهم

تحقيقاً لما يطلب، ولا فرق في ذلك بين سعي الدنيا والآخرة، فالمسلم البصير يعلم أن السعي في الدنيا سبيل لمراتب الفائزين في الآخرة، وبهذا المفهوم قامت الدول الإسلامية المتعاقبة وأشرقت حضارتها الإنسانية المتفوّقة.

ويمكن تقسيم الناس وفق مقياس الهمم إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: أشرف الأقسام

قال ابن القيم في كتابه الداء والدواء: "فإن الكمال الإنساني مداره على أصلين: معرفة الحق من الباطل وإثارة عليه. وما تفاوتت منازل الخلق عند الله تعالى في الدنيا والآخرة إلا بقدر منازلهم في هذين الأمرين، وهما اللذان أثنى الله بهما سبحانه على أنبيائه بهما في قوله تعالى (وَأذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ) (سورة ص: 45)، فَأَلْيَدِي: القوة في تنفيذ الحق، وَالْأَبْصَارُ: البصائر في الدين، فوصفهم بكمال إدراك الحق وكمال تنفيذه، وانقسم الناس في هذا المقام أربعة أقسام، فهؤلاء أشرف الأقسام من الخلق وأكرمهم على الله تعالى". أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ.

قال مُجَدِّدُ الخضر حسين يصف هذا القسم: "يشعر المرء منهم بأن فيه الكفاية لعظائم الأمور، ويجعل هذه العظائم همته. فيُسمى عظيم الهمة وعظيم النفس وكبير الهمة وكبير النفس".

القسم الثاني: عكس هؤلاء، من لا بصيرة له في الدين، ولا قوة على تنفيذ الحق، وهم أكثر هذا الخلق، وهم الذين رؤيتهم قذى العيون وحمى الأرواح وسقم القلوب، يضيقون الديار ويغلون الأسعار، ولا يستفاد من صحبتهم إلا العار والشنار. قال مُجَدِّدُ الخضر حسين يصف هذا القسم: "والثاني رجل فيه الكفاية لعظائم الأمور ولكنه يبخس نفسه فيضع همته في سفاسف الأمور وصغائرها. وهذا من يُسمى صغير الهمة وصغير النفس".

القسم الثالث: من له بصيرة بالحق ومعرفة به، لكنه ضعيف لا قوة له على تنفيذه ولا الدعوة إليه، وهذا حال المؤمن الضعيف، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله منه. قال محمد الخضر حسين يصف هذا القسم: "والثالث رجل لا يكفي لعظام الأمور ويحس بأنه لا يستطيعها وأنه لم يخلق لأمثالها فيجعل همته وسعيه على قدر استعداده. وهذا الرجل بصير بنفسه متواضع في سيرته".

القسم الرابع: من له قوة وهمة وعزيمة، لكنه ضعيف البصيرة في الدين، لا يكاد يميز بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، بل يحسب كل سوداء تمر وكل بيضاء شحمة، يحسب الورم شحماً والدواء النافع سماً. قال محمد الخضر حسين يصف هذا القسم: "رابعهم لا يكفي للعظام ولكنه يتظاهر بأنه قوي عليها مخلوق لأن يحمل أثقالها، وهذا من يسمونه (فخوراً)، وإن شئت فسمه (متعظماً)".

وليس في هؤلاء من يصلح للإمامة في الدين، سوى القسم الأول، وبالصبر واليقين تؤتى الإمامة في الدين، قال الله تعالى (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) (السجدة: 24).

محل الهمة

محل الهمة في القلب.

"فالهمة عمل قلبي، والقلب لا سلطان عليه لغير صاحبه، وكما أن الطائر يطير بجناحيه كذلك يطير المرء بهمتته، فتحلق به إلى أعلى الآفاق طليقة من القيود التي تكبل الأجساد". ولذلك وصف ابن القيم علو الهمة بقوله: "الهمة العالية على الهمم: كالطائر العالي على الطيور، لا يرضى بمساقطهم، ولا تصل إليه الآفات التي تصل إليهم".

ومن يتأمل القلب يجده أصل القوة في الإنسان وقد أوضح ذلك رسول الله ﷺ في الحديث، عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْعَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ».»

وقال الشاعر يصف قوة القلب:

إن يسلب القوم العدا مُد
 كي وتُسلمي الجموع
 فالقلب بين ضلوعه
 لم تُسلم القلب الضلوع

وضعف القلب يؤدي مباشرة إلى ضعف الإرادة والطلب، وكلما كان القلب سليماً كلما كان مطلبه وإرادته أقوى، وفتور الهمة دلالة على وجود الآفة المضعفة لحياة القلب، بينما علو الهمة سبيل الحياة الطيبة.

وحياة الضنك والشقاء هي مصير مكسور الهمة، كما قيل:

نهارك يا مغرور سهو وغفلة
 وليلك نوم والردى لك لازم
 وتكدح فيما سوف تنكر غبه
 كذلك في الدنيا تعيش البهائم
 تسر بما يفنى وتفرح بالمنى
 كما غر بالذات في النوم حالم

لماذا علو الهمة أول مطلب اليوم؟

1. لأنها مطلب القرآن والسنة: قال تعالى (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ)، (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ)، (فَاسْتَبِقُوا الْحَيَاتِ) (وَلَا خَيْرَ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا) وكثيرة هي الآيات التي تشير لعظم علو الهمة والمسابقة في سبيل الله والتي تدم دنو الهمة والكسل والانشغال بما يضر ولا ينفع.

وتأمل قول رسول الله ﷺ كيف يشع همة وبصيرة حين قال عليه الصلاة والسلام: "إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها، فليغرسها". وقال

ﷺ في حديث آخر يوصي بعلو الهمة حتى في الدعاء: "إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة". وقال أيضا عليه الصلاة والسلام: "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف"، والقوة قوة القلب والروح.

وعلى هذا النهج سار الصحابة رضي الله عنهم، قال الفاروق عمر - رضي الله عنه -: «لا تصغرن همتك فإنني لم أر أقعد بالرجل من سقوط همته».

2. لأن الأمة في قاع الضعف والفشل وحال التيه والعبث، والأمة تموت بموت همم أبنائها، فانبعث هذه الهمم هو انبعث هذه الأمة.

3. لأن العالم لا يحترم إلا الأقوياء وأصحاب العزائم والإرادة، ولا يمكن أن نقاوم الظلم والعدوان بدون قوة وصناعة همة.

4. لأن مسؤوليتنا أمام الأجيال عظيمة، وتقديم القدوة لهم أول واجب، حتى لا تطاردنا اللعنات في يوم قادم.

5. لأن الضعف مشين وعار يلحقك ويلحق بكل من ارتبط به اسمك إلا من ارتقى بهيمته.

6. لأننا نملك تاريخًا طويلًا مشرفًا، ومن الوفاء والدين أن نواصل مسيرته المشرفة وننال سهمًا من صناعة النصر المبين الذي ينتظر هذه الأمة بوعد من الله حق.

7. لأن الحياة الدنيا واحدة، وهي دار الامتحان، فلتبذل كل ما في وسعك لجعلها رائعة مزدانة بأنوار العلم والعمل، فبعد الموت العودة مستحيلة وإما قصور السعداء في الجنة وإما حفر الأشقياء في جهنم.

8. لأنك ستنتقل لعالم من السعادة والأمان هو جنة الدنيا قبل الآخرة.

9. لأنه لا خيار أمامك، فإما حياة العز والسؤدد وإما موت الهوان والذل والصغار.

10. لأن الهمم المثابرة كفيلة بتغيير مسار الأحداث وتاريخ الأمم، بل هي من تتكفل بكتابته على أحسن حال.

11. لأن مراتب الآخرة تتفاضل كما تفاضلت مراتب الدنيا، وبقدر سعيك ترتفع مرتبتك في الجنة. (وَلِلآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا) (الإسراء: 21).

12. لأنها من أسباب تحصيل محبة الله ورضوانه سبحانه وتعالى ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومن فاز بمحبة خالقه ونبيه، فقد فاز فوزاً عظيماً.
13. لأن كل مؤمن بيده أن ينجح إن أراد بالفعل ذلك واستعان بالله:

ولم أر في عيوب الناس عيباً
كنقص القادرين على التمام

والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تطفمه ينفطم.

القدوة في صناعة الهمة

الافتداء بقدوة في صناعة الهمة شرط ملازم لا يمكن تجاهله ولا الاستغناء عنه، ولن نجد في تاريخ البشرية أفضل ولا أروع ولا أقوى من قصة الإسلام التي انطلقت يشيّد أمجادها رسول الله ﷺ وصحابته الكرام رضي الله عنهم، فهي قصة تنبض بالهمم المسابقة والنماذج الراقية المبهرة لعطاء النفس البشرية، ولا عجب أن انبهر المؤرخون بإنجازات تلك الثلة التي خرجت في عمق الصحراء، صحراء الطبيعة وصحراء الجاهلية، ومع ذلك فقد كانت السرعة التي أقام بها المسلمون دولة الإسلام الأولى عجيبة، والسرعة التي انهارت بها الإمبراطوريتان العظيمة آنذاك (الفرس والروم) عجيبة أخرى، خاصة بالنظر لإمكانيات المسلمين المادية في ذلك الزمان ولحجم التحديات، ولا شك أن سر هذه الإنجازات يكمن في قوة الروح وقوة تلك الهمم المؤمنة التي حازت فضل الله سبحانه ومعيته فمن يجرأ على هزيمة مثل هذه الهمم!

قال تعالى (فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ) (الرعد:17).

وكذلك كانت همم التابعين ومن بعدهم من صناع المجد، فقد أدركوا سر التفوق، واشتعلت همهم حركة وبركة، فكانت الإنجازات المبهرة، “فالحركة ولود، والسكون عقيم،

والحركة في قاموس الدعاة هي الحياة، والسكون هو الموت”. قال الجيلاني: “الحركة بداية والسكون نهاية، والحركة في الفاصل بين عهد الرخاوة وبين عهد حمل الأمانة بعزم وحزم ووفاء”.

وجاء في كتاب علو الهمة لمحمد إسماعيل المقدم: “وبالحركة انتشر المسلمون الأوائل مثل شعاع الشمس في أقطار الأرض، يفتحون البلاد، ويفتحون قلوب العباد، ويدعون إلى التوحيد، ويحطمون الطواغيت، ويقودون الناس إلى الجنة، وبالحركة صاروا في ظلمات الحياة سراجًا وهاجًا، فإذا الباطل رماد بعد التهاب، وخمود بعد حركة”. وتأمل عمر الفاروق رضي الله عنه كيف جعل مناه في وجود أصحاب الهمم حين قال: “وددت لو أن لي ملء هذه الدار رجالاً كأمثال أبي عبيدة ومعاذ وسالم مولى أبي حذيفة؛ فأطوف بهم الديار أبلغ بهم دعوة الله في الآفاق”.

خريطة الطريق

يقول الشيخ عبد العزيز الطريفي فرج الله عنه: “النفس تتمنى والعقل يُقيدها والوحي يُنير طريق العقل، هكذا تسير قافلة الحق، وأي اختلال أو تبادل مراكز بين هذه الثلاث انحراف عن الطريق الصحيح”.

وصناعة الهمة تتم تحت أنوار الوحي، موظفة طاقات النفس والعقل لكل فرد أفضل توظيف. ولا يمكن أن نحقق صناعة للهمة دون تحصيل نصاب العلم اللازم لصناعتها. ومن خلال خلاصات من سبق من أهل العلم والبصيرة تتلخص لنا المحاور الأساسية لمخطط صناعة الهمة وهي كالتالي:

- المعرفة بالله سبحانه وتعالى ونظام الكون الذي خلقه عز وجل.
- المعرفة بذاتك ونفسك البشرية، للوصول إلى حالة نفسية سليمة تمكنك من تحقيق أفضل عطاء واستقرار وسعادة وبها تتم إدارة نفسك وتطوير ذاتك.
- المعرفة بالمجتمع الذي تعيش فيه والظروف المحيطة بك وفهمها واستيعابها بسيئاتها وحسناتها لتحصيل القدرة على توظيفها لصالح ارتقائك وأهدافك السامية.

- ترجمة كل هذه المعارف إلى حالة الرضا والتوافق والاتزان.
- الانطلاق في مرحلة العمل والإنتاج بعد إعداد العدة الممكنة واستبانة السبيل.
- التمتع بعيشة هنية طيبة في الدنيا والاستبشار بالفوز في الآخرة.

وبين هذه العناوين يتم إشباع حاجات المرء النفسية وضبط قدراته لتحمل المسؤولية واكتساب المهارات الحيوية والاستفادة من فرص التعاون والتفاعل وأدوات الدعم، والمضي في ثبات، تحذو فارس الهمة وفارستها، المسايرة والصبر والمرونة لتحقيق أهداف واقعية ذات قيمة تُعد في مقاييس الهمة أفضل الأهداف.

ولابد من التنبيه إلى أن رحلتنا مع صناعة الهمة تستوجب العناية بصحة المرء النفسية والجسدية في ذات الوقت، فالهمة العالية أول مبعث لراحة الجسد واستقراره وتجاوزه للعقبات الصحية وهذه من بركات علو الهمة فلا يشقى معها معاق ولا مريض ولا مسنّ ولا ضعيف الجسد عليل بل تشرق حياته معها.

وبتحقيق نصاب العلم الكافي لصناعة الهمة، تنطلق الإرادة لتحقيق الأماني بإلهام لا ينضب!

عن ابن معاذ، قال: “سألت أبا عمرو بن العلاء: حتى متى يحسن بالمرء أن يتعلم؟ فقال: ما دام تحسن به الحياة”. ويقول ابن القيم في إغاثة اللهفان: “لما كان في القلب قوتان: قوة العلم والتمييز، وقوة الإرادة والحب، كان كماله وصلاحه باستعمال هاتين القوتين فيما ينفعه، ويعود عليه بصالحه وسعادته، فكماله باستعمال قوة العلم في إدراك الحق ومعرفته، والتمييز بينه وبين الباطل، وباستعمال قوة الإرادة والمحبة في طلب الحق ومحبتة وإيثاره على الباطل”.

وعلى رأس هذا العلم، العلم بالله عز وجل وشرعته، وإنما إرادتنا مندرجة تحت إرادة الله سبحانه.

وعلى أنوار هذه المفاهيم الأساسية سنصل إلى تحصيل العلم النافع والإرادة الفاعلة فيما يشكل أداء همة مبهرة صنعت على نور من الله.

وإن نجاحك في صناعة الهمة هو القفزة الأهم في تغيير حالك وحال أمتك، يحدوك في ذلك: “لن يسبقني إلى الله أحدٌ.”!

تماماً كما فقهها ربعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه حين قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: “سل” فقال: “أسألك مرافقتك في الجنة.”

فتمعن في هذه المعاني واستجمع شوقك لنطلق إلى حلقة ثالثة عنوانها: “الإيمان أولى الأسرار في صناعة الهمة”. وردد إلى ذلك الحين: “لا حول ولا قوة إلا بالله” فهي كنز من كنوز الجنة، روحها التوكل والافتقار إلى الله، وبها تنجو إن رافقها الإخلاص.

الإيمان: أولى الأسرار في صناعة الهمة

اتفقت خلاصات البشر على ضرورة توفر شرط "الإيمان" لصناعة الهمة، وتنوعت المراجع والمؤلفات الإسلامية والغربية التي تؤكد رسوخ هذه الحقيقة. ولا شك أن المسلمين قد تفوّقوا على بقية الأمم في سمو الروح بالإيمان وفي معرفة الله جلّ في علاه، فكان تاريخهم مضرب الأمثال سواء على مستوى قوة الروح أو القدرة على الثبات أو الانبعاث في أسوأ الظروف المادية أو إقامة حضارة مبهرة ماجدة ممتدة، فقدموا بذلك أفضل نموذج قدوة لصناعة الهمة.

يقول مصطفى صادق الرافعي في وحي القلم: "الإيمان وحده هو أكبر علوم الحياة، يُبصِّرُك إن عميت في الحادثة، ويهديك إن ضللت عن السكينة، ويجعلك صديق نفسك تكون وإياها على المصيبة، لا عدوّها تكون المصيبة وإياها عليك، وإذا أخرجت الليالي من الأحزان والهموم عسكر ظلامها لقتال نفس أو محاصرتها، فما يدفع المأل ولا ترد القوة ولا يمنع السلطان، ولا يكون شيء حينئذ أضعف من قوة القوي، ولا أضيع من حيلة المحتال، ولا أفقر من غنى الغني، ولا أجهل من علم العالم، ويبقى الجهد والحيلة والقوة والعلم والغنى والسلطان، للإيمان وحده؛ فهو يكسر الحادث ويقلل من شأنه، ويؤيد النفس ويضاعف من قوتها، ويردُّ قدر الله إلى حكمة الله؛ فلا يلبث ما جاء أن يرجع، وتعود النفس من الرضا بالقدر والإيمان به، كأنما تشهد ما يقع أمامها لا ما يقع فيها".

وبنفس الخلاصة خرج أبو فهر محمود شاكر حين قال: "الإيمان صيقل الحياة الدنيا، ينفي حَبْثَهَا ويجلو صدأها، فإمّا ركبها من ذلك شيء، عاد إليها يحادثها، ويصقلها حتى يتركها بيضاء نقية".

وسبق الرافعي وشاكر، العلامة ابن القيم بخلاصته في باب الإيمان حيث قال في مفتاح دار السعادة: "الإنسان مضطر إلى نوعين من الحياة: حياة بدنه التي يدرك بها النافع والضار، ويؤثر ما ينفعه على ما يضره ومتى نقصت فيه هذه الحياة ناله الألم والضعف بحسب ذلك، وحياة قلبه وروحه التي يميز بها الحق والباطل والغني والرشاد فيختار الحق على ضده فتفيده هذه الحياة قوة التمييز بين النافع والضار في العلوم والإرادات والأعمال".

وقال في مدارج السالكين: ” فَإِنَّ الْإِيمَانَ هُوَ رُوحُ الْأَعْمَالِ، وَهُوَ الْبَاعِثُ عَلَيْهَا، وَالْأَمْرُ بِأَحْسَنِهَا، وَالنَّاهِي عَنِ أَفْجَحِهَا، وَعَلَى قَدْرِ قُوَّةِ الْإِيمَانِ يَكُونُ أَمْرُهُ وَنَهْيُهُ لِصَاحِبِهِ، وَائْتِمَارُ صَاحِبِهِ وَإِنْتِهَاؤُهُ“ .

وقد أثبتت عدة دراسات أجريت لتبيان علاقة الإيمان بالصحة النفسية كان منها دراسة كمال مرسي، التي خلصت إلى أن زيادة الإيمان يؤدي إلى زيادة الصحة النفسية، ونقصانه يؤدي إلى وهن في النفس، فالإيمان سبب للصحة النفسية والصحة النفسية نتيجة للإيمان².

ومن الكتب الغربية التي سلطت الضوء على هذا المفهوم رغم اضطراب قواعدها الإيمانية بارتكازها على النصرانية المحرّفة، كتاب «دع القلق وابدأ الحياة»، وهو الكتاب الشهير الذي ألفه ديل كارنيجي وترجمه عبد المنعم الزيايدي وأشار إليه الأديب الفقيه علي الطنطاوي رحمه الله.

وكارنيجي مؤلف أمريكي ومطور الدروس المشهورة في تحسين الذات ومدير معهد كارنيجي للعلاقات الإنسانية، ولد في عام 1305هـ (1888م) وتوفي في عام 1374هـ (1955م).

وتضمن كتاب كارنيجي بعض خلاصات أستاذ الفلسفة بجامعة هارفارد الأمريكية، وليم جيمس كقوله: “إن أعظم علاج للقلق هو الإيمان”. وقوله: “إن بيننا وبين الله رابطة لا تنفصم، فإذا نحن أخضعنا أنفسنا لإشرافه - سبحانه - تحققت كل أمانينا”.

وقال ديل كارنيجي: ” ترى لماذا يجلب الإيمان بالله والاعتماد عليه سبحانه الأمان والسلام والاطمئنان؟ سَأَدْعُ وليم جيمس يجيب على هذا السؤال: إن أمواج المحيط الصاخبة لا تعكّر قط هدوء القاع العميق، وكذلك الإيمان لا تعكّره التقلبات السطحية، فالرجل المتدين حقاً عصيٌّ على القلق، محتفظٌ أبداً باتزانهِ، مستعدٌّ دائماً لمواجهة ما عسى أن تأتي به الأيام من صروف. فلماذا لا نتجه إلى الله إذا استشعرنا القلق؟ ولماذا لا نؤمن بالله ونحن في أشد حاجة لهذا الإيمان؟“ .

(²) تعريفات الصحة النفسية في الإسلام لكمال مرسي العدد 12 ص (21)

ويدفعنا هذا لعرض خلاصات فيكتور فرانكل زعيم مدرسة "اللوجوثيرابي" أو ما يعرف بـ "العلاج بإحياء المعنى" حيث قال فرانكل: "إن بحث الإنسان عن معنى لحياته قوة أولية في حياة الإنسان وليست تبريراً أولياً لدوافعه الغريزية، وهذا المعنى متفرد وخاص ويجب أن يصل إليه ويحققه الشخص نفسه، وبهذا فقط تتحقق أهميته وترقى هذه الحاجة إلى المعنى لدى الشخص. وهناك بعض الكتاب يؤكدون على أن المعاني والقيم ليست إلا عمليات نفسية دفاعية وتكوين رد فعل وتسامي، ولكن عن نفسي فأنا لا أستطيع أن أعيش فقط في سبيل دفاعاتي النفسية وليس عندي استعداد أن أموت في سبيل تكوين رد الفعل، ولكن الإنسان يستطيع أن يعيش وأن يموت في سبيل مثله وقيمه"³.

وفي هذا الكلام اعتراف ضمني بأهمية الإيمان وأثره في تحقيق الحياة الطيبة من فرانكل، الطبيب النفسي الذي قال عنه بعض الباحثين المسلمين: "وربما لو أن فيكتور فرانكل قد درس الإسلام دراسة وافية لأمكنه إكمال ما بدأه في هذا الاتجاه الصحيح".

وبوضوح أكثر من فرانكل يقول سيرل بيرت، أحد أبرز علماء النفس البريطانيين، مؤكداً على أهمية الدين بعد إخفاق علم النفس الحديث في تحقيق الراحة التي ينشدها الإنسان: "وإن الدين في تعابيره تتضمن أرقى أفكار الإنسان وأحاسيسه عما يحيط به من ألغاز الوجود وتبين أسمى موقف له نحو معضلات الفناء إذن فمهما يكن رأي عالم النفس في التفصيل فإنه مضطر أن يعترف أن الدين من أكثر العوامل الاجتماعية بقاءً، ومن أقوى الوسائل الفعالة للسمو بحياة الفرد والمجموعة البشرية"⁴.

ويقول د. أ.أ. برييل المتخصص في علم النفس: "إن المرء المتدين حقاً لا يعاني قط مرضاً نفسياً"⁵.

واتفقت الدراسات النفسية وخلاصات علماء النفس الغربية والإسلامية على حد سواء على ضرورة العقيدة والإيمان في حياة الإنسان لينعم بحياة مستقرة طيبة وليتمتع بالأمن والصحة النفسية التي تؤهله لأفضل معيشة.

(³) العلاج النفسي في ضوء الإسلام - محمد عبد الفتاح المهدي ص 84.

(⁴) علم النفس الديني سيديل بيرت، ترجمة عيد عبده.. دار الأفق الجديدة بيروت ص 2.

(⁵) الحديث النبوي وعلم النفس محمد عثمان نجاتي "مرجع سابق ص 269.

وتأتي هذه المقدمة لتقدم حقيقة دامغة لا تقبل الجدل ولا الارتياب في أنه لا حياة بدون إيمان، ولا صناعة للهمة بدون هذا الوصال السماوي باتباع دين الله. وليس أي دين بلا شك، فجميع الأديان ما عدا الإسلام مشوهة مليئة بكثير من الانحرافات.

وهذا ما يفسر كون الإسلام أسرع الديانات نموًا وانتشارًا في العالم إذ يجد فيه المعتنقون له، ما لم يجدوه في مختلف الأديان الأخرى، بل يجدون فيه كل ما ترقى به النفس البشرية وتسمو وتتجاوز كل عقبات الخوف في الحياة فلا يخشى المؤمن إلا الله.

يقول مُجَّد عثمان نجاتي: “إن المؤمن الصادق الإيمان لا يخاف من الأشياء التي يخاف منها معظم الناس عادة وهي: الموت، والفقر، والمرض، كما أنه لا يخاف الناس ولا مصائب الدهر وهو ذو قدرة كبيرة على تحمل المصائب لأنه يرى أنها ابتلاء من الله تعالى يجب عليه أن يصبر عليه”⁶.

ثم إن فقدان الإيمان مصيره النهايات الثابتة التي تنتهي لها حياة الملحددين، فمنهم من ينتهي به الحال للانتحار ومنهم من يتخبط ويتناقض فيؤمن حينًا ويحسد حينًا آخر فلا تستقر نفسيته ولا يعرف الأمن والاطمئنان ومنهم من يتوب ويعود منيًّا إلى ربه بعد أن أدرك عظم جرمه.

ولن تجد ملحدًا في هذه الحياة مطمئن النفس مستقرًا وقادرًا على صناعة شيء يحمل معنى في حياته، ذلك أن من فقد الإيمان فقد معه كل نور وكل قيمة، كما قال الله تعالى (أَوْ مَنْ كَانَ مِيثًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (الأنعام: 122).

قال أهل التفسير: “أو من كان ميثًا بالكفر والجهل وهوى النفس... فأحياه الله تعالى بنور الإيمان والعلم والمعرفة... كمن مثله في ظلمات الكفر والجهل أعمى القلب وهذا سواء؟!”.⁶

(⁶) القرآن وعلم النفس ، مُجَّد نجاتي.

إن الدين عند الله الإسلام

فالإيمان الصلب المتين الذي نتحدث عنه هو الإيمان بالله وحده لا شريك له، وهو الأصل الذي رسخه الإسلام وقام عليه، فلا يُقبل دين غيره، قال تعالى (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) (آل عمران: 19).

يقول ابن كثير في تفسير الآية: “وقوله تعالى (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) إخبار منه تعالى، بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين حتى ختموا بمحمد ﷺ الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ، فمن لقي الله تعالى، بعد بعثة محمد ﷺ بدين على غير شريعته فليس بمتقبل كما قال تعالى (وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ) الآية” .

“ثم بيّن - سبحانه - أن اختلاف أهل الكتاب في شأن الدين الحق لم يكن عن جهل منهم بالحقائق وإنما كان سببه البغي والحسد وطلب الدنيا فقال تعالى (وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ)” .

وكان من آخر ما قاله رسول الله ﷺ (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) (المائدة: 3).

لهذا أيها المسلم وأيتها المسلمة، (فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ) ذلك أن أول سر من أسرار صناعة الهمة هو الإيمان المطلق الذي لا يتزعزع ولا يتلججح، إيمان بوحدانية الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له، بتوحيد لا يقبل الشك ولا الشرك. رأس ماله كتاب لا ريب فيه. والتوحيد مُستَقَرٌّ في فِطْرَةِ عَامَّةِ الْبَشَرِ، فهم مُقَرُّونَ لِلَّهِ تَعَالَى بِهِ؛ قَالَ تَعَالَى (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) (لقمان: 25).

ولا يكون ذلك إلا “بالإيمان الجازم والتصديق التام بالله تعالى وما جاء عنه، وما يجب له سبحانه، والإقرار برسالة نبيه ﷺ، وتصديقه والاتباع له في كل ما شرعه الله، وتحقيق ذلك نيّةً وقصدًا، وقولًا وعملاً بمقتضى ذلك، وتركًا لكل ما ينقص كمال الإيمان الواجب أو يُنافيه ويُضادّه” .

قال تعالى (لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ) (البقرة: 177)، وقال تعالى (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) (القمر: 49).

وسأل جبريل عليه السلام - معلماً الصحابة - ما الإيمان؟ فأجابه رسول الله ﷺ: "الإيمان: أن تُؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره".

وقال - ﷺ - جامعاً الأركان القوليّة والعملية للإسلام بقوله: "بُني الإسلام على خمسٍ: شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسولُ الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً".

يقول ابن القيم في الفوائد: "والإيمان حقيقة مركبة من معرفة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم علماً، والتصديق به عقداً، والإقرار به نطقاً، والانقياد له محبةً وخضوعاً والعمل به باطناً وظاهراً وتنفيذه والدعوة إليه بحسب الإمكان، وكماله في الحب في الله والبغض في الله والعطاء في الله والمنع لله، وأن يكون الله وحده إلهه ومعبوده، والطريق إليه تجريد متابعته رسوله ظاهراً وباطناً".

وذهب كثيرٌ من أهل العلم إلى أن الإيمان في اللغة هو التصديق؛ وذهب آخرون إلى أن الإيمان في اللغة هو الإقرار أي: الاعتراف بالشيء عن تصديق به. وقال في ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- بفراسته اللافتة: "فإن اشتقاقه من الأمن الذي هو القرار والطمأنينة، وذلك إنما يحصل إذا استقر في القلب التصديق والانقياد".

وقال بعض السلف: "ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكنه ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال".

ومن حكمة الشعر في ذلك قول القائل:

إِيمَانُنَا عَقْدٌ وَقَوْلٌ وَعَمَلٌ يَزِيدُهُ الْبِرُّ وَيَنْقُصُهُ الزَّلَّةُ

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

ثم إن معرفة الله عز وجل فطرة راسخة في الإنسان منذ خلقه، وهي أساس الإيمان بالله وهي وسيلة التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، وسيلة تورث السكينة والطمأنينة إلى الله تعالى والرضا به رباً ومعبوداً، يعايشها العبد بالتفكير والنظر في آيات الله الكونية والآيات الشرعية، قال تعالى (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ) (الأعراف: 185) وقال سبحانه (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ) (المؤمنون: 68) وقال تعالى (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) (ص: 29).

ومن تدبر كتاب الله، وتفكر في خلقه سبحانه وتأمل في حكمته وقدرته سينال قدراً كبيراً من المعرفة بالله تعالى، بديع السماوات والأرض. قال ابن حجر الهيتمي في الفتاوى الحديثية: ”الطريق في معرفة الله تعالى النظر في مخلوقاته، إذ لو أمكن تحصيلها بطريق آخر أسهل من ذلك لسلكه إبراهيم صلى الله على نبينا وعليه وسلم” .

وقال ابن القيم في الفوائد: ”الرب تعالى يدعو عباده في القرآن إلى معرفته عن طريقين: أحدهما: النظر في مفعولاته، والثاني: التفكير في آياته وتدبرها، فتلك آياته المشهودة، وهذه آياته المسموعة المعقولة” .

وننقل من فوائد ابن القيم في هذا الصدد، استنباطاً رائعاً خلاصته: ”القرآن كلام الله، وقد تجلى الله فيه لعباده بصفاته، فتارة يتجلى في صفات الهيبة والعظمة والجلال، فتخضع الأعناق وتنكسر النفوس وتخضع الأصوات ويذوب الكبر كما يذوب الملح في الماء.

وتارة يتجلى في صفات الجمال والكمال وهو كمال الأسماء وجمال الصفات وجمال الأفعال الدال على كمال الذات، فيستنفذ حبه من قلب العبد قوة الحب كلها بحب ما عرفه من

صفات جماله ونعوت كماله، فيصبح فؤاد عبده فارغًا إلا من محبته، فإذا أراد منه الغير أن يعلق تلك المحبة به أبي قلبه وأحشاؤه ذلك كل الإباء كما قيل:

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل

فتبقى المحبة له طبعًا لا تكلفًا.

وإذا تجلّى بصفات الرحمة والبر واللطف والإحسان انبعثت قوة الرجاء من العبد وانبسط أمله وقوي طمعه وسار إلى ربه وحادي الرجاء يحدو ركاب سيره، وكلما قوي الرجاء جد في العمل كما أن البادر كلما قوي طمعه في المغل غلق أرضه بالبذر، وإذا ضعف رجاءه قصر في البذر.

وإذا تجلّى بصفات العدل والانتقام والغضب والسخط والعقوبة انقمعت النفس الأمانة وبطلت، أو ضعفت قواها من الشهوة والغضب واللهو واللعب والحرص على المحرمات، وانقبضت أعنة رعوناتها فأحضرت المطية حظها من الخوف والخشية والحدزر.

وإذا تجلّى بصفات الأمر والنهي والعهد والوصية وإرسال الرسل وإنزال الكتب شرع الشرائع، انبعثت منها قوة الامتثال والتنفيذ لأوامره والتبليغ لها والتواصي بها وذكرها وتذكرها، والتصديق بالخبر والامتثال للطلب والاجتناب للنهي.

وإذا تجلّى بصفة السمع والبصر والعلم انبعث من العبد قوة الحياء فيستحي ربه أن يراه على ما يكره، أو يسمع منه ما يكره، أو يخفي في سريره ما يملكه عليه فتبقى حركاته وأقواله وخواتمه موزونة بميزان الشرع غير مهملة ولا مرسله تحت حكم الطبيعة والهوى.

وإذا تجلّى بصفات الكفاية والحسب والقيام بمصالح العباد وسوق أرزاقهم إليهم ودفع المصائب عنهم ونصره لأوليائه وحمائمه لهم ومعيته الخاصة لهم انبعثت من العبد قوة التوكل

عليه والتفويض إليه والرضا به، وما في كل ما يجريه على عبده وبقيمه مما يرضى به هو سبحانه والتوكل معنى يلتئم من علم العبد بكفاية الله وحسن اختياره لعبده وثقته به ورضاه بما يفعله به ويختاره له.

وإذا تجلّى بصفات العز والكبرياء أعطت نفسه المطمئنة ما وصلت إليه من الذل لعظمته والانكسار لعزته والخضوع لكبريائه وخشوع القلب والجوارح له، فتعلوه السكينة والوقار في قلبه ولسانه وجوارحه وسمته ويذهب طيشه وقوته وحدته.

وجماع ذلك أنه سبحانه يتعرف إلى العبد بصفات إلهيته تارة، وبصفات ربوبيته تارة، فيوجب له شهود صفات الإلهية المحبة الخاصة والشوق إلى لقائه والأنس والفرح به والسرور بخدمته والمنافسة في قربه والتودد إليه بطاعته والهج بذكره والفرار من الخلق إليه، ويصير هو وحده همه دون ما سواه، ويوجب له شهود صفات الربوبية التوكل عليه والافتقار إليه والاستعانة به والذل والخضوع والانكسار له، وكمال ذلك أن يشهد ربوبيته في إلهيته، وإلهيته في ربوبيته، وحمده في ملكه، وعزه في عفوه، وحكمته في قضائه وقدره، ونعمته في بلائه وعطاءه في منعه وبره، ولطفه وإحسانه ورحمته في قيوميته، وعدله في انتقامه، وجوده وكرمه في مغفرته وستره وتجاوزه، ويشهد حكمته ونعمته في أمره ونهيته، وعزه في رضاه وغضبه، وحلمه في إمهاله، وكرمه في إقباله، وغناه في إعراضه.

وأنت إذا تدبرت القرآن وأجرته من التحريف وأن تقضي عليه بآراء المتكلمين وأفكار المتكلمين أشهدك ملكاً قيومًا فوق سماواته على عرشه يدبر أمر عباده يأمر وينهى، ويرسل الرسل وينزل الكتب ويرضى ويغضب ويثيب ويعاقب ويعطي ويمنع ويعز ويذل ويخفف ويرفع يرى من فوق سبع، ويسمع ويعلم السر والعلانية فعال لما يريد موصوف بكل كمال منزه عن كل عيب لا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بإذنه، ولا تسقط ورقه إلا بعلمه ولا يشفع زهد عنده إلا بإذنه ليس لعباده من دونه ولي ولا شفيع. ” انتهى.

فسبحان الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور سبحانه الحكيم الخبير علام الغيوب، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور جلّ وعلا، لا تكفي الكلمات لوصف عظمته وقدرته ذو الجلال والإكرام.

وهكذا تنطلق النفس المؤمنة مطمئنة التي لا حول ولا قوة لها إلا بالله، تشق عنان الحياة عابدة لله مستعينة به فتحقق بشاشة الروح والرضى من القلب والثقة بوعده الله وتتجاوز المحن والابتلاءات بثبات وصبر ويقين، لا تركز ولا تطغى خشية من الله وعذاب الآخرة، وتسابق بالخيرات مستقيمة، رغبة في الجنة والمراتب السامقة، فينعكس هذا المشهد على المجتمع وعلى الأمة، فتحفظ الحقوق، وتزدهر الحضارة وتحقق البشرية.

ومما لا يجب إغفاله في هذا المقام، أن المسيرة سيتخللها مكر الشيطان وترصه قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ) (البقرة: 208) لهذا فسيستمر التدافع بين نزعات الخير والشر في داخل الإنسان حتى يخرج الأعز منها الأذل وهذا يستوجب معرفة بعوامل تعزيز الخير وإخماد الشر، ثم سنتحدث بعدها لزاماً عن روعة العطاء ورفي الإنسان وسعادته، فرداً وجماعة وأمة.

وإنه لمن تمام النجاح والفوز أن ينطلق العبد في صناعة الهمة من توطيد وصاله بخالقه سبحانه، بحسن ذكره وشكره وعبادته، بالتفكير في عظمته وقدرته، بإقبال المخلص بقلبه وجوارحه، فلا يكون ممن قال الله فيهم الله سبحانه (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۗ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (الزمر: 67).

وأي قلب حيّ يتدبر هذه الآية العظيمة ولا يخشع! ولا يمتلكه الوجمل، ولا نقشعر من وقعها جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله!

وبقدر حرصك على القرب من الله سبحانه وتعالى بقدر ما تنعم بفضله وكرمه وإحسانه إليك وتلك السكينة والطمأنينة والسعادة التي تقر في قلبك لا تضاهيها سعادة في الدنيا.

وكيف يطيق العبد أن يسير في هذه الأرض المكتظة بالعقبات والتحديات دون أن ينشد توفيق الله ومعيته! كيف يمكنه أن يستشعر القوة دون أن يستمدّها من خالقه، كيف يمكنه أن يعتد بنفسه الضعيفة مستكبراً وهو الذي يقعه المرض والشوكة الصغيرة يشاكها!

فجدد الإيمان وأطلق البصر في السماء، واقطع حبال الغفلة بصدق الدعاء والرجاء واللجوء إلى الله سبحانه، قبل أن تخطو أي خطوة ومع كل خطوة وبعد كل خطوة! فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : يقول الله تعالى " أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منهم، وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة) رواه البخاري ومسلم.

قال الشاعر:

وإني لأدعو الله حتى كأنني أرى بجميل الظن ما الله صانع

الإيمان بالنفس

وإن كان الحديث عن الإيمان بالله العظيم يضبط الأصل والمنطلق الذي يقوم عليه أداء المرء السليم، ويكسب المؤمن المعية الإلهية التي لا سبيل للنجاح والنجاة بدونها، فإن هناك إيمان ينضوي تحت هذا الإيمان ألا وهو الإيمان بالنفس ومقوماتها وقدرتها على تحقيق صناعة الهمة، وهو البند الثاني في خطتنا لبناء الهمة، وهو يستدعي المعرفة التامة بالنفس البشرية وسبل حفظ سلامتها وتحقيق رقيتها، وإمام المرء بهذه المعطيات بعد معرفته بالله

ونظام هذا الكون، يسمح بمعرفة خصائص نفسه ونقاط ضعفه والتحديات وأسباب التفوق والنجاح.

قال علي بن أبي طالب عليه السلام: “إن البعد عن الله لن يثمر إلا علقماً.. ومواهب الذكاء والقوة والجمال والمعرفة تتحول كلها إلى نِقَم ومصائب.. عندما تعرى عن توفيق الله.. وتحرم بركته”.

والحديث عن معرفة النفس البشرية حديث تطول فصوله، سنتناوله بعمق أكثر في حلقتنا الرابعة بعنوان “معرفة النفس البشرية لصناعة الهمة” .

فأحسن الظن بالله يا صانع الهمة، وردد إلى لقاء مقبل: “سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته” .

لا إله إلا الله...

معرفة النفس البشرية

ليس بدعاً من القول أن يكون الجهل بطبيعة النفس البشرية وخصائصها أبرز الأسباب في تعثر الهمم، ففي كثير من الأحيان لا ينقص المرء الإيمان بربه ولا الاجتهاد في عبادته لكن مشكلته تكمن في استيعاب نفسه البشرية وترشيد طاقاتها لأفضل أداء وإنجاز. والحديث عن النفس البشرية يأخذنا إلى تعريف هذه النفس وماهيتها، والدراسة بنقاط قوتها وملكاها وقيمها الفطرية والمكتسبة إضافة إلى أثر الوراثة والبيئة التي يعيش فيها المرء. ورغم أن النفس البشرية تعد الأقرب إلينا إلا أنها مع هذا القرب شديدة الغموض. ولذلك بقيت معرفة حقيقة هذه النفس مثار اهتمام فلاسفة التربية منذ التاريخ، واعتُبر العالم المحيط بأسرارها أكثر توفيقاً في التأثير على الجماهير من غيره.

تعريف النفس

وأما تعريف النفس لغة، فيستعمل العرب كلمة نفس على وجهين: أحدهما قولك: خرجت نفس فلان، أي روحه، ويقال في نفس فلان أن يفعل كذا وكذا، أي في روعه. والوجه الآخر أن معنى النفس حقيقة الشيء وجملته، يقال: قتل فلان نفسه، وأهلك فلان نفسه، ليس معناه أن الإهلاك وقع ببعضه إنما الإهلاك وقع بذاته كلها ووقع بحقيقته كلها⁷. وتأني النَّفس أيضاً بمعنى "الحسد، والعين، يقال: أصابته نَفْسٌ؛ أي: عَيْنٌ، والنَّفس العائن". وجاء في لسان العرب أن النَّفس تعني: "العَظْمَة، والكَبِير، والنَّفْس: الهِمَّة، والنَّفْس: العِزَّة، والنَّفْس: عَيْنُ الشَّيْءِ، وَكُنْهَهُ". ...

(7) أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى، معجم تهذيب اللغة، تحقيق رياض زكي قاسم مج 4، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع.

كما تأتي النفس بمعنى الدم، وذلك أنه إذا فُقد الدم من الإنسان فَقَدَ نَفْسَهُ؛ أو لأنَّ النَّفْسَ تخرجُ بِخروجه، يُقال: سالتَ نَفْسَهُ، وفي الحديث: "ما ليس له نفس سائلة لا يُنَجِّسُ الماء إذا مات فيه".

وجاءت النفس أيضا في مقام التمييز، فقد جعلت العرب النفس التي يكون بها التمييز نفسين؛ وذلك أن النَّفْسَ قد تأمره بالشيء وتنهى عنه، عندما يكون الإقدام على أمر مكروه، فجعلوا التي تأمره نَفْسًا، وجعلوا التي تنهاه كأنها نفس أخرى. ثم تأتي النَّفْسُ بمعنى الأخ، قال تعالى (فَسَلِّمُوا عَلَي أَنْفُسِكُمْ نَجِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً) (النور: 61).

وبهذا اتسعت معاني النفس وتعددت مدلولاتها لغة. وجمع النفس: أنفُسٌ ونفوسٌ، أما النَّفْسُ، فهو خروج الهواء ودخوله من الأنف والفم، وجمعه أنفاس، وهو كالغذاء للنَّفْسِ؛ لأن بانقطاعه بطلانها.

وأما تعريف النفس اصطلاحًا: فهي جوهر الإنسان، ومحرك أوجه نشاطه المختلفة؛ إدراكيةً، أو حركية، أو فكرية، أو انفعالية، أو أخلاقية؛ سواء أكان ذلك على مستوى الواقع، أو على مستوى الفهم، والنفس هي الجزء المقابل للبدن في تفاعلها وتبادلها التأثير المستمر والتأثر، مكونين معًا وحدة متميزة نطلق عليها لفظ (شخصية) تُميز الفرد عن غيره من الناس، وتؤدي به إلى توافقه الخاص في حياته⁸.

وتعرفها بعض المعاجم الفلسفية بأنها: مبدأ الحياة والفكر أو كليهما معا باعتبارها حقيقة مميزة عن الجسد الذي تظهر فاعليتها من خلاله⁹. ويعرفها بعض الباحثين على أنها: الكُلُّ المتكامل للإنسان الذي يشمل الجسد والعقل والروح جميعا، ولا يقتصر على شعور الإنسان أو لا شعوره فقط.

بينما عرفها الغزالي بقوله: "إن نفس كل شيء حقيقته وهُوَ الجَوْهَرُ الَّذِي هُوَ مَحَلُّ المعقولات وهُوَ من عَالَمِ الملكوت ومن عَالَمِ الأَمْرِ".

(⁸) فرج عبد القادر طه موسوعة علم النفس والتحليل النفسي ط: 3، القاهرة.10.

(⁹) أندريه لالاند موسوعة لالاند الفلسفية ط 2، تعريب خليل أحمد خليل.

أما ابن تيمية فقال عنها: ” النفس ما اقترن بالمادة التي هي (الهُيُوتَى)¹⁰، وهي الجسم كنفس الإنسان المدبرة لبدنه، وما دامت نفس الإنسان مدبرة لبدنه سموها نفساً¹¹ “. .

النفس بين الغرب والإسلام

ويبقى القرآن أوثق المصادر على الإطلاق التي تقدم لنا الحقيقة الكاملة والمطلقة عن الإنسان وطبيعة النفس البشرية، قال تعالى (ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ) (البقرة: 2) (كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ) (الأعراف: 2).

فقد جمع القرآن كل الأسرار التي تعتمد عليها النفس البشرية لتحقيق حياة سليمة تنجو بها من أشكال الشقاء والقلق، وتعرف معها السكينة والاطمئنان في سعيها نحو الكمال.

وتفوقت - بلا شك وبشكل كبير- الدراسات الإسلامية للنفس البشرية عن الدراسات الغربية لهذه النفس، ذلك أن علم النفس الغربي ينطلق من منطلقات مادية تهمل الروحانيات في تناوله النفس البشرية، فتسبب هذا القصور في إثارة أجواء الشك والاضطراب والقلق والتشتت. على عكس الإسلام الذي قدم دراسة متكاملة ملمة بكل جوانب هذه النفس.

ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن دراسة النفس البشرية ظلت في حقبة ما قبل الإسلام فكراً فلسفياً نظرياً طورته الاجتهادات الشخصية، لذلك تباينت أصوله من فيلسوف لآخر بحسب ظروفه التي نشأ فيها وتأثر بها وتسبب ذلك في اضطرابات وتصادمات وتناقضات كثيرة بين الفلاسفة.

واستمرت تلك الأصول طويلاً حتى جاء الإسلام فزال الشك واستقر اليقين وتجلت الحقائق بمعرفة الله سبحانه وتعالى وبمعرفة الإنسان لعلاقته بخالقه وبمجتمعه وبنفسه.

(10) وهي: لفظ يوناني بمعنى: الأصل والمادة، وفي الاصطلاح: هي الجوهر في الجسم قابل لما يعرض لذلك الجسم من الاتصال، والانفصال محل للصورتين الجسمية، والنوعية، فهي مادة ليس لها شكل، ولا صورة معينة، قابلة للتشكيل، والتصوير في شتى الصور، وهي التي صنع الله تعالى منها. أجزاء العالم المادية، أي: هي مادة الشيء التي يصنع منها، كالخشب للكرسي، والحديد للمسمار، والقطن للملابس. ينظر: التوقيف على مهمات التعريف، للمناوي: 1/ 745، والمعجم الوسيط: 2/ 1004.

(11) مجموع الفتاوى، ابن تيمية: 273/9.

ودراسة النفس البشرية لا يمكن أن تكون بمعزل عن خالقها ومصوّرها، سبحانه جلّ في علاه.

ومن يقارن دراسات ابن القيم النفسية بنظيراتها الغربية يجد الاختلاف في مفاهيم الصحة النفسية يتركز في أصول الخلق ومصادر التلقي والغاية من الخلق والهدف الأخرى. فابن القيم يعتمد في دراسته للنفس على القرآن والسنة، ولذلك يكرر في خلاصاته أن الإنسان خلق من طين مادي ونفخة روحية، ولا تتحقق الصحة والسعادة إلا بتحقيق التوازن بينهما بتخصيص الروح الاهتمام الأكبر.

لكن الدراسات الغربية في هذا الباب تغفل الجانب الروحي وتتخبط في مصادر التلقي والغاية من الخلق والهدف الأخرى، فتغرق مفاهيم الصحة النفسية في الماديات، فجاءت نتائجهم محدود للغاية.

يقول ابن القيم -رحمه الله-: "خلق بدن ابن آدم من الأرض وروحه من ملكوت السماء، وقرن بينهما فإذا أجاج بدنه وأسهره وأقامه في الخدمة، وجدت روحه خفة وراحة، فتاقت إلى الموضوع الذي خلقت منه، واشتاقت إلى عالمها العلوي، وإذا أشبعه ونعمه ونومته واشتغل بخدمته وراحته أخلد البدن إلى الموضوع الذي خلق منه، فانجذبت الروح معه، فصارت في السجن، فلولا أنها ألفت السجن، لاستغاثت من ألم مفارقتها وانقطاعها عن عالمها الذي خلقت منه، كما يستغيث المعذب". فتأمل دقة التشخيص.

معاني النفس البشرية في القرآن

تظهر النفس في القرآن بمعنى الروح كقول الله تعالى (وَنَسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَدْرُونَ) (البقرة: 44)؛ وقوله تعالى (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا) (الزمر: 42)؛ وقوله تعالى (أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ) (الأنعام: 93).

كما تظهر النفس في القرآن بمعنى الإنسان، أي: الشخصية البشرية بكامل هيئتها، من جسد وشخصية، كما في قوله تعالى (وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ

مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (البقرة: 48)، وقوله تعالى (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا) (آل عمران: 145).

وتظهر النفس في القرآن أيضا مشتملة على الجسم والروح معا، كقوله تعالى (قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ) (القصص: 33).

وتظهر النفس في القرآن بمعنى العقل أو بتعبير آخر القوى المفكرة في الإنسان كما في قوله تعالى (تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ) (المائدة: 116).

قال الطاهر بن عاشور - رحمه الله - في تفسيره لهذا المعنى: "والنَّفْسُ تُطَلَّقُ عَلَى الْعَقْلِ وَعَلَى مَا بِهِ الْإِنْسَانُ إِنْسَانًا، وَهِيَ الرُّوحُ الْإِنْسَانِي، وَتُطَلَّقُ عَلَى الذَّاتِ، وَالْمَعْنَى هُنَا: تَعْلَمُ مَا أَعْتَقَدُهُ؛ أَي: تَعْلَمُ مَا أَعْلَمُهُ؛ لِأَنَّ النَّفْسَ مَقْرُورَةً الْعُلُومِ فِي الْمَتَعَارِفِ، وَإِضَافَةَ النَّفْسِ إِلَى اسْمِ الْجَلَالَةِ هُنَا بِمَعْنَى الْعِلْمِ الَّذِي لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ غَيْرُهُ؛ أَي: وَلَا أَعْلَمُ مَا تَعْلَمُهُ؛ أَي: مِمَّا انْفَرَدَتْ بِعَمَلِهِ".

وتظهر النفس في القرآن بمعنى قُوى الخير والشر في الإنسان، سواء من حيث إدراكهما أو التمييز بينهما أو الاستعداد لهما، كما قال تعالى (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) (الشمس: 7، 8)، وقال سبحانه (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) (البلد: 10)؛ أي: بَيَّنَّا لَهُ الطَّرِيقَيْنِ، طَرِيقَ الْخَيْرِ وَطَرِيقَ الشَّرِّ، وَقَالَ تَعَالَى (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) (الشمس: 9، 10).

خلاصة مفهوم النفس

وبذلك يقدم لنا القرآن فهماً أعمق للنفس وتعريفًا أكثر خصوصية ودقة وشمولية، كما يقول الدكتور عبدالكريم الخطيب في تعريفه للنفس في التفسير القرآني للقرآن: "إن بالفهم الذي يستريح إليه العقل في شأن النفس، هو أنها شيء غير الروح وغير العقل، وأنها هي الذات الإنسانية أو الإنسان المعنوي، إن صح هذا التعبير، إنها تتخلق من التقاء الروح بالجسد، إنها التركيبة التي تخلق في الإنسان ذاتيةً يعرف بها أنه ذلك الإنسان بأحاسيسه ووجدانه ومُدركاته، فالنفس هي ذات الإنسان، أو هي مشخصات الإنسان التي تنبئ عن ذاته، ولا نريد أن نذهب إلى أكثر من هذا، وحسبنا أن نُؤمن بأن الروح من أمر الله، فلا

سبيل إلى الكشف عنها؛ كما يقول سبحانه (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) (الإسراء: 85)، وأن النفس جهازٌ خفيٌّ عاملٌ في الإنسان، فهي الإنسان المعنوي، ولهذا كانت موضع الخطاب من الله تعالى، كما أنها كانت موضع الحساب والثواب والعقاب، والله أعلم ” .

أنواع النفس البشرية

تعريف النفس البشرية يقودنا إلى بحث أنواع هذه النفس، وهذا لا يعني أن النفس الواحدة منفصمة ولها أوجه في ذاتها بل يعني بشكل أدق أنها تمر بأحوال وتحمل صفات وجب التعرف عليها.

ومن جميل ما قاله ابن القيم -رحمه الله- عن النفس البشرية وصفاتها في كتاب الروح: “إن النفس البشرية واحدة كما يقول المفسرون والفقهاء إلا أن كثيراً من أهل التصوف يقولون: إن للعبد ثلاث أنفس، والحقيقة أنه لا نزاع بين الفريقين، فإنها واحدة باعتبار ذاتها، وثلاث باعتبار صفاتها.

قال تعالى (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ) (الفجر: 27).

وقال تعالى (وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) (القيامة: 2).

وقال تعالى (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) (يوسف: 53).

إذاً فالنفس واحدة، ولكن لها صفات متعددة فتسمى باعتبار كل صفة كالتالي ” .

وكذلك قال شيخه ابن تيمية -رحمه الله-: “أن هذه صفات وأحوال لذات واحدة، وإلا فالنفس التي لكل إنسان: هي نفس واحدة، وهذا أمر يجده الإنسان في نفسه ” . ومعنى ذلك أن لابن آدم ثلاثة صفات وأحوال لنفسه هي: نفس أمارة بالسوء، ونفس لوامة، ونفس مطمئنة.

ومن الناس من تغلب عليه حالة من الثلاث، ومنهم من تغلب عليه أخرى.

والخلاصة المتفق عليها في أنواع النفس البشرية أنها واحدة باعتبار ذاتها، وثلاثة باعتبار صفاتها.

فإذا دعت النفس إلى شهواتها مالت إليها فهي: النفس الأمارة بالسوء، فإذا فعلتها أتت النفس اللوامة، فلامتها على ذلك الفعل القبيح من ارتكاب الشهوات، فتحصل الندامة وهذه من صفات النفس مطمئنة، وقيل أن النفس أمارة بالسوء بطبعها فإذا تزكت صارت مطمئنة¹².

ونفس الإنسان قد ترتقي لأعلى مراتب الارتقاء، أو تنحدر لأدنى مراتب الانحدار، فهي تقوى وتضعف، تقود وتنقاد، تغلب عليها صفة من الصفات، فتصعد أو تنزل، وهذه حقيقة تتكرر مع النفس البشرية.

وكما أن الإيمان يزيد وينقص، فإن النفس البشرية تتأثر بعوامل التربية وظروف البيئة فتشع صلاحًا أو تظلم فسادًا .

وقد جمع القرآن صفات النفس المختلفة، فمنها الأمارة واللوامة والمطمئنة والزكية والحواذية (أي: تستحوذ على الإنسان فتدفعه إلى تكرار أنماط سلوكية وسواسية) ومنها الظالمة والمجادلة، والملهمة والمجاهدة والمهتدية، والشاكرة، والصالحة، والشحيحة، والخيرة؛ وقد تزيد هذه الصفات بحسب الحالة العامة للنفس.

وتأمل كيف وصف هذه النفس ابن القيم حين قال في الفوائد: “في النفس كبر إبليس، وحسد قابيل، وعتو عاد، وطغيان ثمود، وجرأة نمrod، واستطالة فرعون، وبغي قارون، وقحة هامان -أي: لؤم-، وهوى بلعام -عراف أرسله ملك ليلعن بني إسرائيل فبارك ولم يلعن-، وحيل أصحاب السبت، وتمرد الوليد، وجهل أبي جهل .

وفيها من أخلاق البهائم: حرص الغراب، وشرة الكلب، ورعونة الطاووس، ودناءة الجمل، وعقوق الضب، وحقد الجمل، ووثوب الفهد، وصولة الأسد، وفسق الفأرة، وخبث الحية، وعبث القرد، وجمع النملة، ومكر الثعلب، وخفة الفراش، ونوم الضبع” .

وهذا يفسر لماذا على المؤمن أن يعمل على قيادة نفسه أفضل قيادة لصناعة الهمة.

وفيما يلي سنتناول بعض صفات النفس البشرية كما وردت في القرآن الكريم:

(12) تفسير الخازن: 3/ 290.

النفس السوية (الملهمة)

تظهر صفة النفس السوية والملهمة في قوله تعالى (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) (الشمس: 7، 8).

قال ابن كثير -رحمه الله- في معنى قوله تعالى (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)؛ أي: "خلقها الله سوية مستقيمة على الفطرة القويمة".

وقال الإمام الشوكاني في فتح القدير: "ومعنى سواها: خلقها وأنشأها وسوّى أعضائها؛ قال عطاء: يريد جميع ما خلق من الجن والإنس، والتكثير للتفخيم، وقيل: المراد نفس آدم، (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)؛ أي: عرفها وأفهمها حالهما وما فيهما من الحسن والقبح.

والإلهام: "أن يوقع في قلبه، وإذا أوقع الله في قلب عبده شيئاً ألزمه ذلك الشيء"، وحاصل كلام المفسرين في الإلهام المذكور في الآية: أنه إلهام الفطرة، أو بيان الوحي.

النفس الأمارة بالسوء أو النفس الشهوانية

وهي التي تميل إلى الطبيعة البدنية، وتأمّر باللذات والشهوات الحسيّة، وتجذب القلب إلى الجهة السفلية، فهي مأوى الشرور، ومنبع الأخلاق الذميمة¹³.

وهي التي تأمر صاحبها بما تهواه من الشهوات المحرّمة وإتياع الباطل؛ قال تعالى (فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (المائدة: 30) وقال تعالى (وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ) (يوسف: 53).

وهي النفس التي تستوجب المجاهدة ذلك أن الشيطان قرين للنفس الأمارة بالسوء؛ فيوسوس لها، وهي تستجيب وتنساق خلف أزمه المتواصل.

جاء في كتاب مدارج السالكين: "من عرف نفسه وما طبعت عليه، عرف أنها منبع كل شر، ومأوى كل سوء، وأن كل خير فيها؛ فضل من الله منّ به علينا"، ومن هنا يتبيّن لنا ضرورة الإمام بمداخل الخير والشر في هذه النفس والتعامل على أساسها كالفارس يمسك بلجام الفرس ويقودها للسبيل الصحيح.

(13) من كتاب التعريفات؛ المؤلف: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: 816هـ)

النفس اللوامة

أقسم الله بها في قوله تعالى (وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) (القيامة: 2)، واللوامة جاءت في صيغة مبالغة على وزن الفعالة مما يدل على أن عملية اللوم عملية مستمرة مع الإنسان، فتكرر وتعيد اللوم على صاحبها، وفي هذا دلالة صلاح.

قال الحسن البصري: "إن المؤمن والله ما تراه إلا يلوم نفسه: ما أردت بكلمتي؟ ما أردت بأكلمي؟ ما أردت بحدِيث نفسي؟، وإن الفاجر يمضي قدما ما يعاتب نفسه".

وفي هذا الشأن يقول الدكتور عبدالكريم الخطيب: "والنفس اللوامة، هي النفس التي ترجع على صاحبها باللائمة لما يقع منه من إثم، وما يقترف من ذنب... وهذا التلويم من شأنه أن يُغيّر من وَضْع الإنسان القائم على الإثم، والمتّجه إلى المنكر... إنه قوة معارضة لهذا التيار الذي يدفع به إلى المنكر، وقد يتحوّل هذا التيار إلى الجهة المضادة لطريق الغواية المتجه إليه... وهذا ما يُشير إليه قوله تعالى (أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (61) وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) (المؤمنون: 61، 62) فمع وجل القلوب، يقع في النفس ما يقع من لوم على ما فرط منها".

قال ابن القيم في أقسام القرآن: "وكل نفس لوامة، فالنفس السعيدة تلوم على فعل الشر وترك الخير، فتبادر إلى التوبة، والنفس الشقية بالضد من ذلك".

النفس الظالمة

وهي نفس الكافر، نفس ظالمة، ولا يأتي لومها لذاتها حالة الذنب إلا بعد فوات الأوان وفي وقت لا ينفع معه الندم، وفي هذا يقول الله تعالى (إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا) (النبأ: 40) فنعوذ بالله من الظلم والنفس الظالمة.

النفس المطمئنة

أما النفس المطمئنة، فهي النفس المؤمنة التي لا يستبد بها القلق في أي حال من أحوالها، في السراء أو الضراء؛ إنها في حال واحدة أبداً من الرضا بما قسم الله لها، إنها أسمى

وأروع مرحلة يصل لها الإنسان من الاستقرار والسعادة والسكينة مهما اشتدت بها الخطوب قد أسلمت أمرها لخالقها ورضيت بقدرها وتماشت بما توفر لها من أسباب دون سخط أو يأس، قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي) (الفجر: 27 – 30).

وقال أهل اللغة عن النفس المطمئنة: “هي التي تم تنورها بنور القلب حتى انخلعت عن صفاتها الذميمة، وتخلقت بالأخلاق الحميدة”، وفي هذه الآية قال ابن عباس رضي الله: المطمئنة إلى ما قال الله، والمصدقة بما قال، بينما قال قتادة: المطمئنة إلى ما قال الله، والمصدقة بما قال.

ويكفيها شرفاً تلك النفس المطمئنة أن بشارتها جاءت من خالقها، فأمنت الخوف والحزن يوم الحساب ويوم الهول وفازت فوزاً عظيماً.

النفس الزاكية والزكية

نجدها في قول موسى عليه السلام حيث قال تعالى (فَأَنْطَلَقًا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا) (الكهف: 74). قال الكسائي: “الزَّاكِيَةُ وَالزَّكِيَّةُ” لغتان ومعناها الطاهرة، وقال أبو عمرو: الزَّاكِيَةُ التي لم تذنّب، وَالزَّكِيَّةُ التي أذنبت ثم تابت.

ومن تدبر القرآن وتأمل معانيه مع النفس سيخرج بصفات أخرى لها، وفيما عرضنا كفاية لاستيعاب حقيقة النفس كما عرضها القرآن العظيم.

اعرف نفسك

اعرف نفسك قبل الانطلاق، فلا يمكنك أن تصنع همة وتحقق إنجازاً وترتقي في سلم النجباء بدون معرفتك لنفسك وتوظيفك لإمكانياتك وخصائصك وملكاتك أحسن توظيف.

فمعرفتك بنفسك تسمح لك بالاستفادة من سقطاتك وعثراتك وكذلك نجاحاتك وامتيازاتك.

وللأسف فبالرغم من حجم العلوم والمعارف التي أولاها الإنسان اهتمامه في دراسة العالم وظواهره وفنون العمل والإنتاجية وما يدور في فلك مصلحة الإنسان وتفاعله مع مكونات الحياة لم يزل الجهل بذات الإنسان مستشريًا، والتخبط في علاج ضعفها منتشرًا. كما لا يكفي الحديث عن النفس في كتب الباحثين والدارسين، إنما يجب أن ينعكس هذا الفهم وهذه المعرفة بالنفس في الحياة العملية لتتم ترجمة العلم إلى عمل.

وتزداد الحاجة إلحاحًا اليوم مع المسلم ليعرف نفسه فينجو بها من تيارات الانجراف ومن الانقياد كالأنعام خلف كل دعوة أو ظالم وكل إعلام موجه لهدم أحلام أمته. ولا يمكننا تحقيق مشروعنا في صناعة الهممة دون هذه المعرفة التي نستوعب معها كيف تتجاوب النفس وكيف تتألق أو تسقط، دون أن نحيط علمًا بنقاط ضعف هذه النفس ونقاط قوتها، وسبل علاجها وشفائها، وهذه المعرفة هي التي تؤدي إلى صناعة مجتمعات سوية قادرة على النهوض من وحل الهزيمة والخنوع. ثم إن معرفة النفس تفتح الباب أمام تحقيق سلامتها، وحفظها من الاضطرابات النفسية والأمراض العصبية التي للأسف أصبحت ظاهرة منتشرة عند الناس. فمع انحدار معايير التربية وظروف المعيشة والإنسان، خرجت لنا نفسيات منهزمة متوعكة، ضعيفة غير قادرة على تحمل الصدمات والأزمات وكم من النفوس لجأت للأدوية النفسية بدون جدوى. ولاشك أن لهذه المشكلة الحل الأنسب، وأن النفس وإن ضعفت أو تراجعت فهي قابلة للتقويم والارتقاء.

قال الشاعر:

والنفسُ راعبةٌ إذا رعبَتْها
وإذا تُردُّ إلى قليلٍ تقنَعُ

وفي الواقع نحن نعيش في زمان طغى فيه الإنسان قال تعالى (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ) (العلق: 6-7). فلا بد من ضبط الموازين والعودة لجادة الطريق، والخروج بجيل مستنير بالجيل الأول المتفرد الذي فتح أصقاع الأرض متجاوزاً كل الصعاب، حاملاً راية الإسلام العظيم بحسن خلقه وأدائه وتألق هممه، ذلك أن انطلاقهم بدأت بنفوس سليمة فكانت نهاياتها سليمة وهو ما يجب أن نعمل عليه بجد واجتهاد، قال تعالى (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) (التين: 4) فلنرتقي بأنفسنا إلى أعلى مراتب النفس البشرية وأروعها.

يا خادِمَ الجِسمِ كَمْ تَسْعَى لخدمَتِهِ
أَتَطْلُبُ الرِّيحَ مِمَّا فِيهِ خِسرَانُ
أَقْبِلْ عَلَى النَفْسِ فَاسْتَكْمِلْ فضائِلَهَا
فَأَنْتَ بِالنَّفْسِ لَا بِالجِسمِ إِنْسَانُ

وقفه مع النفس

إن الله سبحانه وتعالى قد أودع في هذه النفس حين خلقها، نوازعها نحو الخير ونحو الشر، وظللها بظل رحمته، لتواجه معترك الحياة بحفظه، فتستمر في خط المجاهدة حتى تَرْجِعَ إلى رَبِّهَا راضيةً مرضيةً، لتنال الجزاء الأوفى، وخلال هذه المسيرة يعتري النفس مخاطر الزيف عن الحق واتباع الباطل ودعوات الضلال والفساد، فمن ثبت واستقام أو تاب واستدرك تمكن من الوصول إلى مرتبة النفس المطمئنة التي تتجاوز جميع العقبات براحة وسكينة تستمد أنوارها من السماء.

ولأن آفات النفس البشرية وعيوبها كثيرة ومتعددة، وحظوظ النفس يتعذر حصرها وعددها، فليس من الحكمة الانشغال بعد هذه العلل، إنما الحكمة في تسخير جميع الطاقات والأوقات في العمل، يقول ابن القيم عن شيخه ابن تيمية: "سألت يوماً شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن هذه المسألة [تهذيب النفس] وقطع الآفات؟ قال لي جملة كلام: النفس مثل الباطوس - وهو جبّ القدر - كلما نبش ظهر وخرج، ولكن إن أمكنك أن تسقف عليه، وتعبه وتجوّزه فافعل، ولا تشتغل بنبشه، فإنك لن تصل إلى قراره، وكلما نبشت شيئاً ظهر غيره.

فقلتُ: سألت عن هذه المسألة بعض الشيوخ، فقال لي: مثل آفات النفس مثل الحيات والعقارب التي في طريق المسافر، فإن أقبل على تفتيش الطريق عنها، والاشتغال بقتلها انقطع، ولم يمكنه السفر قط، ولتكن همتك المسير، والإعراض عنها، فإذا عرض لك فيها ما يعوقك عن المسير فاقتله، ثم امض على سيرك. فاستحسن شيخ الإسلام ذلك جداً” .
فبدل الانشغال في عد آفات النفس والانحدار إلى قاع اليأس فإن الأولى من ذلك الانشغال بالاستدراك والانطلاق من جديد بغض النظر كم عمرك وما هو ظرفك وأي مستوى وصلت له ذنوبك وكبواتك، يكفي أن تعلنها توبة ونبداً الرحلة، رحلة صناعة الهمة.

وهكذا تسير بنا الحياة وفق سنن الله، ما دام العبد منشغلاً بتغيير نفسه للأفضل، غيّر الله حاله وحال من انتهج نهجه إلى الأحسن، قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (الرعد: 11).

وفي الختام فإن النفوس تتباين وتختلف، ولكن تباينها واختلافها ليس في الفطرة والتكوين بل في الاختيار والقدرة على التغيير، ومن هذا المنطلق وجب علينا التركيز على إحداث التغيير الأسمى لهذه النفوس ولا يمكن ذلك قبل تحقيق سلامتها وصحتها. وهذا ما سنتناوله في الحلقة الخامسة من سلسلتنا في صناعة الهمة بعنوان “أسرار الصحة النفسية” .

وإلى ذلك الحين ردد قول البارودي:

فأنهض إلى صهوات المجد معتلياً

فالباز لم يأو إلا عالي القل.

ودع من الأمر أدناه لأبعده

في لجة البحر ما يغني عن الوشل.

أسرار الصحة النفسية

الصحة النفسية مطلب عام لكل نفس بشرية، تناولته الدراسات النفسية القديمة والحديثة باهتمام وتركيز مستمرين، ولكن علماء المسلمين كانوا الأكثر قدرة على سبر أغوار هذا العلم منذ زمن بعيد وعلى رأسهم الإمام ابن قيم الجوزية -رحمه الله- الذي ساعتمد على خلاصاته النيرة في هذا الطرح.

وبالمقارنة بين خلاصات الدراسات النفسية الغربية والإسلامية نصل لنفس خلاصة المختص في هذا المجال، مُجدِّ الشناوي في كتابه "خصائص شخصية المسلم في كتابات ابن القيم" حين قال: "ومن هنا نجد أنه من غير المناسب أن يستعير أي مجتمع نظريات للشخصية تطورت في مجتمعات أخرى تختلف عنه في المعتقدات والعادات والقيم، ولذا لا بد للباحث المسلم أن يبحث عن التصور الإسلامي لشخصية الإنسان وطبيعتها ومفهوم إسلامي للسلوك السوي والمنحرف"¹⁴.

تعريف الصحة النفسية

اختلفت تعريفات الصحة النفسية وتباينت باختلاف الأفهام وتباينها، فبعضهم يرى الصحة النفسية خلو النفس من الأمراض، وآخرون يرونها تحقيق التوازن في النفس، وذهب فريق ثالث إلى أنها تحقيق التوافق والتكيف، أو تحصيل السعادة والاستقرار، وعرفها فريق بعبارة واحدة "تحقيق الذات"¹⁵.

لن نطيل الحديث في تعريفات الصحة النفسية، فهي مختلفة باختلاف مدارس وثقافات الباحثين ووجهات نظرهم.

(14) خصائص شخصية المسلم في كتابات ابن القيم مُجدِّ محروس الشناوي رسالة التربية وعلم النفس الجمعية السعودية للعلوم التربوية والنفسية العدد 5 ص 77-132.

(15) تعريفات الصحفة النفسية في الإسلام، كمال مرسي، مجلة الشريعة الكويت العدد 12 ص 5.

وما يهمننا في هذا الطرح هو تقديم الخلاصات المتينة التي تُستقى من مصادر الإسلام العظيم، وبالتالي فإن الصحة النفسية وفق الإسلام هي أن يعيش الإنسان على فطرته في قرب من الله وسلام مع الناس ووثام مع النفس، وسلامة في الجسد ونجاح في الحياة¹⁶.

وما يزيد الإلحاح للتمسك بالتعريف الإسلامي للصحة النفسية هو القصور اللافت الذي يعتري الدراسات الغربية مع النفس وإغفالها للجانب الروحي مما ألحق الاضطراب بخلاصاتها التي اقتصرت على النفس بحد ذاتها والماديات، بعيداً عن حقيقة خالق هذه النفس، الله سبحانه وتعالى، وعن حقيقة الخلق وما بعد الموت.

ولا يختلف عاقلان في أن الصحة النفسية مطلب عام بغض النظر عن خلفيات الناس ومراتبهم الدنيوية والفكرية، ذلك أن تحقيق الصحة النفسية يعني ببساطة العيش في سعادة وراحة واستقرار.

ومما يجدر تسجيله في هذا المقام ارتفاع معدلات الإصابة بالاضطرابات النفسية والأمراض العقلية والانحرافات السلوكية وأنواع الشذوذ السلبي في عصرنا الحاضر. وترتفع هذه المعدلات بشكل أبرز في المجتمعات الغربية التي طغت فيها الماديات على جانب الروح. ويعرف الواقع المسلم هذه الحالات أيضاً بحكم الظروف التي يعيشها المسلمون من ضعف واضطهاد وبؤس وخوف تسبب كل هذا في سوء الحالة النفسية لبعض الناس.

ومع أن الإسلام يحمل الحلول لكل هذه المشاكل النفسية إلا أن إهمال جانب القيم ومحاربة مصادر العقيدة والأخلاق وارتفاع النبرة المادية الجشعة تسبب في هجران جوهر الإسلام، وهذا هو ببساطة سبب الفساد وعيشة الضنك التي تعاني منها المجتمعات.

(16) الصحة النفسية في ضوء الإسلام.

مناهج تحقيق الصحة النفسية

سنجد الدراسات النفسية للصحة النفسية تتفق على 3 مناهج في تناول هذا الموضوع الهام.

- المنهج الإنشائي، ويعتمد هذا المنهج على دراسة قدرات وإمكانيات الأفراد والمجتمعات وتوجيهها لأفضل حياة سعيدة وطيبة، وأحسن درجة رضا وكفاية وتوافق.
- المنهج الوقائي، ويعتمد على مبدأ الوقاية من الوقوع في المشكلات والاضطرابات النفسية، كما يقول المثل “الوقاية خير من العلاج” فالوقاية من المرض ثم إن ظهر المرض العمل على تشخيصه والتقليل من آثاره.
- المنهج العلاجي، ويعتمد على تقديم العلاج بشكل مباشر للأمراض والاضطرابات النفسية للعودة إلى حالة الصحة النفسية السليمة.

والهدف من المناهج الثلاث هو حفظ الصحة النفسية للمرء سليمة ومعافاة ليتمتع صاحبها بعيشة طيبة هانئة مستقرة.

فالشخصية التي تتمتع بصحة نفسية سليمة، هي شخصية قادرة على التوافق وتجاوز الأزمات وتحمل الصدمات، تشعر بالسعادة مع نفسها ومع غيرها، قادرة على تحقيق ذاتها واستغلال قدراتها، وتنعم بعيشة طيبة مطمئنة مهما اشتدت بها الخطوب هي قادرة على الاستمرار باتزان.

واتفق ابن القيم في تحديد مناهج تحقيق الصحة النفسية مع الدراسات النفسية وهي الإنشائي والوقائي والعلاجي.

يقول ابن القيم في الطب النبوي: “إن قواعد طب الأبدان ثلاثة: حفظ الصحة، والحماية من المؤذي واستفراغ المواد الفاسدة” .

ويضيف في إغاثة الفهان: “إذا عرف هذا فالقلب يحتاج لما يحفظ عليه قوته وهو الإيمان وأوراد الطاعات، وإلى حمية من المؤذي الضار، وذلك باجتنب الآثام والمعاصي وأنواع

المخالفات، وإلى استغفاره من كل مادة فاسدة تعرض له بالتوبة النصوح واستغفار غافر الخطيئات”.

ومع أن ابن القيم يتفق في المناهج وقواعد الصحة النفسية مع الدراسات النفسية لكنه يختلف معها في تفسير هذه المناهج.

ذلك أن هذه المناهج تتحدث فقط عن تحقيق سعادة وقتية مرتبطة بالتوافق النفسي والاجتماعي، بينما يركز ابن القيم على السعادة الدائمة المرتبطة بالتوافق مع الحق ويدخل ضمن ذلك التوافقان النفسي والاجتماعي. وهنا نقطة فارقة بين الدراسات النفسية الغربية المحدودة والإسلامية المتسعة.

وعن تحقيق الصحة النفسية فيتم من خلال ثلاث جوانب:

- جانب الإنسان مع الله سبحانه وتعالى ويشمل العبودية لله والصدق والأدب والذكر.
- وجانب الإنسان مع نفسه ويشمل العبودية لله والصدق والتكميل والأدب والتوسط.
- وجانب الإنسان مع الآخرين والمجتمع، ويشمل العبودية لله والصدق والتكميل والأدب والتوسط.

فتكون خلاصة الجوانب الثلاث الطمأنينة والرضا.

وهنا يجدر التأكيد على ضرورة تنمية الجانب الروحي وقوة تفاعله مع الجانب الجسمي الذي يقوم على التوسط والاعتدال في إشباع حاجات البدن التي لا بد منها وإشباع حاجات الروح وتطلعاتها التي لا حياة للإنسان بدونها.

لابد من الاهتمام بالآخرة مع عدم إهمال الدنيا، يقول مُجَّد عثمان نجاتي أحد الباحثين في الدراسات النفسية في كتاب “الصحة النفسية في ضوء علم النفس والإسلام”: ”مما هو جدير بالملاحظة أن مؤشرات الصحة النفسية التي وضعها علماء النفس المحدثون من

الغربيين والعرب تدور كلها حول تكيّف الفرد أو توافقه مع نفسه ومع المجتمع ومدى قدرته وفعاليته في القيام بشئون حياته الواقعية وإشباع حاجاته المادية الدنيوية إنهم بذلك لم يوجهوا أي اهتمام نحو الجانب الروحي في الإنسان وإلى أهمية دور الدين والإيمان في الصحة النفسية وإن كان عدد قليل منهم بدأوا يدركون أهمية الدين والإيمان بالله في الصحة النفسية¹⁷ .

مرتكزات لتحقيق الصحة النفسية

1. الصحة النفسية كما خصها ابن القيم

يطلق ابن القيم اسم "السعادة القلبية" أو "الحياة الطيبة" على الصحة النفسية، ويقول في ذلك: "ولما كانت الصحة من أجل نعم الله على عبده وأجزل عطاياه وأوفر منحه بل العافية أجل النعم على الإطلاق فحقيق لمن رزق حظاً من التوفيق مراعاتها وحفظها وحمايتها عما يضرها".

وعن سبيل تحقيق ذلك يقول ابن القيم في كتابه الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي: "يحتاج الإنسان لأمرين بهما يتم سعادته وفلاحه:

- أحدهما أن يعرف تفاصيل أسباب الشر والخير ويكون له بصيرة في ذلك بما شهده في العالم وما جربه في نفسه وغيره وما سمعه من أخبار الأمم قديماً وحديثاً.
- الأمر الثاني: أن يحذر من مغالطة نفسه على هذه الأسباب."

ويوضح ابن القيم أكثر الصحة النفسية أو الحياة الطيبة حين يقول في مدارج السالكين: "فالوحي حياة الروح كما أن الروح حياة البدن ولهذا فمن فقد هذه الروح فقد فقد الحياة النافعة في الدنيا والآخرة، وقد جعل الله الحياة الطيبة لأهل معرفته ومحبتة وعبادته فقال تعالى (مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)".

(17) الصحة النفسية في ضوء علم النفس والإسلام، كما مرسي، محمد عثمان نجاتي، الحديث النبوي وعلم النفس) وعلم النفس الدعوي. عبد العزيز النغمشي.

فالحياة الطيبة ليست مجرد القناعة والرضى والرزق الحسن وغير ذلك مما تركز عليه الدراسات النفسية، بل الحياة الطيبة هي حياة القلب ونعيمه وبهجته وسروره بالإيمان ومعرفة الله ومحبته والإنابة إليه والتوكل عليه، فلا حياة أطيب من حياة صاحبها، ولا نعيم فوق نعيمه إلا نعيم الجنة، كما لخص ذلك ابن القيم رحمه الله.

يقول ابن القيم أيضا: ” وسمي الوحي روحًا: لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح بالإيمان والعلم والهدى، وهي روح معرفة الله سبحانه وتوحيده ومحبته، وعبادته وحده لا شريك له، ومن فقد هذه الروح فَقَدْ فَقَدَ الحياة النافعة في الدنيا والآخرة”.

ويواصل موضحًا: “ولكل عبد روحان:

روح يحيي بها الله قلب من شاء من عباده .. وروح يحيي بها البدن .. وقد جعل الله الحياة الطيبة لأهل معرفته ومحبته وعبادته”.

ولذلك يشقى من خالف أمر الله وابتعد عن هدي نبيه ﷺ قال ابن القيم: ” وأنه إذا خولف أمره ونهيه (يقصد مخالفة أمر الله سبحانه وتعالى ونهيه) ترتب عليه من النقص والفساد والضعف والذل والمهانة والحقارة وضيق العيش وتنكد الحياة ما ترتب، قال تعالى (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِّي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) “.

“والضنك في الدنيا ضيق الصدر ونكد العيش وكثرة الخوف وشدة الحرص والتعب على الدنيا والتحسر على فواتها قبل حصولها وبعد حصولها والآلام التي في خلال ذلك ما لا يشعر به القلب لسكرته وانغماسه في السكر فهو لا يصحو ساعة إلا أحس وشعر بهذا الألم فبادر إلى إزالته بسكر ثان فهو هكذا مدة حياته” .

وأما السعادة فقسّمها ابن القيم في كتابه مفتاح دار السعادة لأنواع:

السعادة الأولى: سعادة خارجية عن ذات الإنسان بل هي مستعارة له من غيره تنزل باسترداد العارية وهي سعادة المال والحياة.

والسعادة الثانية: سعادة في جسمه وبدنه كصحته واعتدال مزاجه وتناسب أعضائه، وحسن تركيبه وصفاء لونه وقوة أعضائه فهذه ألصق به من الأولى ولكن هي في الحقيقة خارجة عن ذاته.

والسعادة الثالثة: هي السعادة الحقيقية وهي سعادة نفسانية روحية قلبية وهي سعادة العلم النافع ثمرته فإنها هي الباقية على تقلب الأحوال والمصاحبة للبعد في جميع أسفاره وفي دوره الثلاث، ويعني بذلك دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار وبها يترقى معارج الفضل ودرجات الكمال.

والسعادة سعادة القلب والروح والنفس، وذلك لا يأتي إلا بهدي من الله تعالى فالحياة الطيبة الهانئة المطمئنة نتاج طبيعي للإيمان بالله والعمل الصالح، وهي سعادة ممتدة ومصاحبة للإنسان في دنياه وقبره وآخرته كما علمنا القرآن الكريم.

أما الدراسات النفسية الحديثة فاقترت تركيزها على السعادة الدنيوية واختلفوا في سبب إيجادها فمنهم من ربطها بالتوازن ومنهم من ربطها بالتوافق والتوافق مع النفس والمجتمع وآخرون يربطونها بمواجهة الأزمات معتمدين بذلك على أقول المتخصصين وتجاربهم وآرائهم.

ولا يختلف ابن القيم مع الدراسات النفسية على أهمية طلب الحياة السعيدة الطيبة لكنه جعل السعادة والحياة الطيبة أكثر امتداداً منها عند علماء النفس فهي تشمل الدور الثلاث: الدنيا البرزخ والآخرة.

كيف نحقق الصحة النفسية؟

نحقق الصحة النفسية والسعادة القلبية والحياة الطيبة بما يلي:

- بالعلم والإرادة.
- بالإيمان بالله تعالى ومتابعة الرسول ﷺ.
- بالتوكل على الله.

- بالتفكير.
- بحسن الخلق.
- بالصبر.
- بعلو الهمة والجد (الطموح).
- بالتنظيم والمحافظة على الوقت.
- بالاهتمام بغذاء البدن والقلب (الروح).
- بالمحاسبة.
- بالاستغفار والتوبة.

وفيما يلي تفصيل ذلك:

1. بالعلم والإرادة

يقول ابن القيم في إغاثة اللهفان: "ولما كان في القلب قوتان قوة العلم والتميز، وقوة الإرادة والحب كان كماله وصلاحه باستكمال هاتين القوتين فيما ينفعه ويعود عليه بصالحه وسعادته، فكماله باستعماله قوة العلم في إدراك الحق ومعرفته، والتميز بينه وبين الباطل، وباستعمال قوة الإرادة والمحبة في طلب الحق ومحبته وإيثاره على الباطل".

فالكمال الإنساني لا ينال إلا بالعلم والإرادة، كما أن النقص والمرض ينال الإنسان بتقصيره في أحدهما، ويقول ابن القيم في مفتاح دار السعادة: "فإن مراتب السعادة والفلاح إنما تفوت العبد من هاتين الجهتين أو من أحدهما إما أن لا يكون له علم بها فلا يتحرك في طلبها أو يكون عالماً بها ولا تنهض همته إليها".

وعلى قمة هذا العلم، العلم بالله عز وجل وشرعه، يوضح ذلك ابن القيم في مفتاح دار السعادة بقوله: "إن العلم بالله أصل كل علم وهو أصل علم العبد بسعادته وكماله ومصالح دنياه وآخرته، والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكما لها وما تزكو به وتفلح به".

والعلم هو المعرفة والفهم الصحيح النافع، بينما الإرادة هي عزم القلب على العمل، وتحرك الجوارح نحوه بقوة ودون تردد فهو يمثل السلوك.

وللإنسان إرادة مسئولية تقع تحت إرادة الله تعالى، وهي مناط الجزاء من ثواب وعقاب.

2. بالإيمان بالله تعالى ومتابعة الرسول ﷺ

وهذه ركيزة أساسية في تحقيق سلامة النفس وسعادتها بل هي سبب الصحة النفسية الأعظم وطريقها الأكبر وبها تتحقق الحياة والسعادة القلبية، يقول في ذلك ابن القيم في مفتاح دار السعادة: "الإنسان مضطر إلى نوعين من الحياة، حياة بدنه التي يدرك بها النافع والضار ويؤثر ما ينفعه على ما يضره، ومتى نقصت فيه هذه الحياة ناله من الألم والضعف بحسب ذلك، وحياة قلبه وروحه التي يميّز بها بين الحق والباطل والغيّ والرشاد فيختار الحق على ضده فتفيده هذه الحياة قوة التمييز بين النافع والضار في العلوم والإرادات والأعمال".

ويقول في إغاثة اللفهان: "الله أقسم على أن كل أحد في خسر إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان بالله وقوته العملية بطاعة الله".

والإيمان "هو روح الأعمال وهو الباعث عليها والأمر بحسنها والناهي عن قبحها وعلى قدر قوة الإيمان، يكون أمره ونهيه لصاحبه وائتمار صاحبه وانتهاءه".
وقوة الإيمان سبب أول في سعادة القلب وسكينة.

3. بالتوكل على الله

فالتوكل من الإيمان ولكن لأهمية ترى الدراسات النفسية الإسلامية فيه أحد أهم المرتكزات لتحقيق سلامة النفس وسعادتها، وهو لفظ يجمع الاعتماد على الله والاستسلام لشرعه والتفويض إليه، يقوم على حسن الظن به.

يقول ابن القيم في مدارج السالكين: "وَكُلَّمَا كَانَ الْعَبْدُ حَسَنَ الظَّنِّ بِاللَّهِ، حَسَنَ الرَّجَاءِ لَهُ، صَادِقَ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُجِيبُ أَمَلَهُ فِيهِ الْبَتَّةَ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يُجِيبُ أَمَلِ أَمَلٍ، وَلَا يُضَيِّعُ عَمَلِ عَامِلٍ... فَإِنَّهُ لَا أَشْرَحَ لِلصَّدْرِ، وَلَا أَوْسَعَ لَهُ بَعْدَ الْإِيمَانِ مِنْ ثِقَتِهِ بِاللَّهِ وَرَجَائِهِ لَهُ وَحُسْنِ ظَنِّهِ بِهِ".

وثمره التوكل الرضا ومعناه القناعة والسعادة القلبية والاطمئنان.

ولذلك يعد التوكل سبباً مهماً في تحقيق الصحة النفسية السليمة فهو يؤدي إلى:

- تعلق الإنسان بخالقه وركونه إليه فيتقدم في الحياة مستمداً قوته من الله سبحانه، فلا يعجز ولا ييأس لأنه يعلم أن له رباً يستعين به ويهديه سبله.
- وينفي عن القلب الحزن والخوف، لأن صاحبه قد فوض أمره لله وقد قدم ما يستطيع، فإن تعسرت الأمور أو كانت النتائج عكسية فإنه راضٍ بذلك لأن قلبه معلق بالله لا بالأشياء الدنيوية.

4. بالتفكير

ونحقق سلامة النفس بالتفكير، يقول ابن القيم في مفتاح دار السعادة: ” التفكير يوقع صاحبه من الإيمان ما لا يوقعه العمل المجرد، فإن التفكير يوجب له من انكشاف حقائق الأمور وظهورها له وتميز مراتبها في الخير والشر ومعرفة مفضولها من فاضلها وأقبحها من قبيحها ومعرفة أسبابها الموصلة إليها وما يقاوم تلك الأسباب ويدفع موجبها والتميز بين ما ينبغي السعي في تحصيله وبين ما ينبغي السعي في دفع أسبابه وبالجملة فأصل كل طاعة إنما هو الفكر وكذلك أصل كل معصية إنما يحدث من جانب الفكرة”.
إذن التفكير عبادة شرعية وشعيرة إيمانية وطريقة عقلية مما يزيد قوة وارتباطاً.

5. بحسن الخلق

وحسن الخلق سبب في تحقيق الصحة النفسية، قال ابن القيم في مدارج السالكين: “الدين كله خلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين”. وأضاف: “وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر والعفة والشجاعة والعدل”.

فالصبر يحمل على الاحتمال وكظم الغيظ وكف الأذى والحلم والأناة وعدم الطيش والعجلة.

والعفة تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والعمل.
والشجاعة تحمله على عزة النفس وإيثار معالي الأخلاق وعلى البذل والندى الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته.
والعدل يحمله على اعتدال أخلاقه وتوسطه بين طرفي الإفراط والتفريط، وكل خلق محمود مكتنف بخلقين ذميين وهو وسط بينهما وطرفاه خلقان ذميمان.

وحسن الخلق يكون هبة من الله ويكون كسبياً عن طريق المجاهدة، قال ابن القيم في مدارج السالكين: "فإن قلت هل يمكن أين يقع الخلق كسبياً؟ أم هو أمر خارج عن الكسب؟ قلت: يمكن أن يقع كسبياً بالتخلق والتكلف حتى يصير له سجية ومملكة".
إذن لا بد من مجاهد النفس والتحلي بأحسن الأخلاق ومعاملة الناس بها، وفي ذلك الكثير من الأدلة من القرآن والسنة التي تشدد على أهمية هذه الخصلة في المؤمن.
يقول الشيخ عبد العزيز الطريفي فرج الله عنه: "يُسلب من إيمان الإنسان بمقدار بذاءة لسانه، ففي الحديث: "ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان، ولا الفاحش ولا البذيء".
والصحة النفسية لا تعطى للفرد ببساطة لكنه يكتسبها بجده واجتهاده في عمل ما يربطه بربه ويزكي نفسه ويحفظ حياته ويوطد علاقته.

6. بالصبر

قال ابن القيم في الفوائد: "وهذا طلب السعادة يحتاج إلى فضل علم تدرك به الغايات من مبدائها وقوة صبر يوطن به نفسه على تحمل مشقة الطريق لما يؤمل عند الغاية فإذا فقد الصبر واليقين تعذر عليه ذلك، وإذا قوي يقينه وصبره هان عليه كل مشقة يتحملها في طلب الخير واللذة الدائمة".

والصبر يشمل فعل الطاعة واجتناب المعصية والرضا بالقضاء.
وهو تحمل التكاليف الشرعية وتحقيق العبودية والرضا بالمقدور.
والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد وهو ثلاث أنواع كما لخصها ابن القيم: "صبر على فرائض الله فلا يضيعها، وصبر عن محارمه فلا يرتكبها، وصبر على أقضيته وأقداره فلا

يتسخطها. ومن استكمل هذه المراتب الثلاث، استكمل الصبر ولذة الدنيا والآخرة ونعيمهما والفوز والظفر فيهما فلا يصل إليه أحد إلا على جسر الصبر كما لا يصل أحد إلى الجنة إلا على الصراط. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: خير عيش أدركناه بالصبر، وإذا تأملت مراتب الكمال المكتسب في العالم رأيتها كلها منوطة بالصبر وإذا تأملت النقصان الذي يذم صاحبه عليه ويدخل تحت قدرته رأيتَه كله من عدم الصبر فالشجاعة والعفة والجود والإيثار كله صبر ساعة”.

فالصبر طلسم على كنز العلى من حل ذا الطلسم فاز بكنزه

وتعرف الدراسات النفسية الحديثة الصبر على أنه القدرة على ضبط الذات وتحمل المسؤولية والقدرة على مواجهة الصراعات والإحباط والأزمات والقدرة على الصمود، وعرفه بعضهم على أنه تحمل الإحباط دون قلق ومواجهة المكاره دون جزع، وتقبل المصائب دون هلع.

ومما يجدر ذكره في مقام الصبر، قول “بيرسل” أنه قد تبين من دراسات كثيرة أن سبب الانهيارات والأمراض الجسمية في المصائب ليست من شدتها وقسوتها، ولكن من عدم الصبر عليها وسوء التفكير فيها والجزع منها”.

وفي هذا الصدد يقول محمد عثمان نجاتي في كتابه القرآن وعلم النفس: أن “الإنسان إذا تعلم الصبر على عبادة الله وطاعته، وعلى مقاومة شهواته وانفعالاته، والصبر على العمل والانتاج، فإنه يصبح إنساناً ذا شخصية ناضحة متزنة متكاملة منتجة فعالة ويصبح عصياً على القلق وفي مأمن من الاضطرابات النفسية”.

7. بعلو الهمة والجد (الطموح)

ولا شك أن علو الهمة وسمو المطالب من أسباب تحقيق الصحة النفسية السليمة، يقول ابن القيم في مدارج السالكين: “وكما أن علوم الهمة وصدق الإرادة والطلب من كمال

الحياة فهو سبب إلى حصول أكمل الحياة الطيبة، وأخس الناس حياة أحسنهم همة وأضعفهم محبة وطلباً.”

والهمة المطلوبة: “أن لا تقف دون الله ولا تتعوض عنه بشيء سواه، ولا ترضى بغيره بدلاً منه، فالهمة العالية على الهمم كالتائر العالي على الطيور لا يرضى بمساقطهم ولا تصل الآفات إليها، وكلما نزلت قصدتها الآفات من كل مكان.”

ويقول أيضاً: “إنه قد استقرت حكمة الله أن السعادة والنعيم والراحة لا يوصل إليها إلا على جسر المشقة والتعب ولا يدخل إليها إلا من باب المكاره والصبر وتحمل المشاق، وأن العقلاء قاطبة متفقون على استحسان إتياب النفوس في تحصيل كمالاتها من العلم النافع والعمل الصالح والأخلاق الفاضلة.”

وحديث علو الهمة حديث ذو شجون!

8. بالتنظيم والمحافظة على الوقت

وهذه من أهم الأسباب لتحقيق الإنجازات وسعادة النفس، يقول ابن القيم في الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي: “ثم الخطرات بعد أقسام تدور على أربعة أصول: خطرات يستجلب بها العبد منافع دنياه، وخطرات يستدفع بها مضار دنياه، وخطرات يستجلب بها مصالح آخرته، وخطرات يستدفع بها مضار آخرته، فليحصر العبد خطراته وأفكاره وهمومه في هذه الأقسام الأربعة، فإذا انحصرت له فيها، فما أمكن اجتماعه لم يتركه لغيره، وإذا تزاومت عليه الخطرات لتزاحم متعلقاتها قدم الأهم فالأهم الذي يخشى فوته، فهو موضع استعمال العقل والفقه والمعرفة ومن هنا ارتفع ونجح من نجاح وخاب من خاب.”

وهذا يعني استثمار الفرص واستغلال القدرات والمحافظة على الوقت فلا يشتغل بشيء أقل أهمية من شيء أكثر أهمية وأكبر نفعاً. وهي قاعدة الأولويات.

قال ابن القيم في مدارج السالكين: “وإذا أراد الله بالعبد خيراً أعانه بالوقت وجعل وقته مساعداً له وإذا أراد به شراً جعل وقته عليه وناكده وقته فكلما أراد التأهب للمسير لم يساعده الوقت والأول كلما همت نفسه بالعودة أقامه الوقت وساعده.”

9. بالاهتمام بغذاء البدن والقلب (الروح)

ولتحقيق الصحة النفسية لابد من الاهتمام بالبدن والروح معا، قال ابن القيم في الطب النبوي: “معرفة فطره ومحبه وتوحيده، والسرور به والابتهاج بحبه والرضا عنه والتوكل عليه والحب فيه والبغض فيه، ولا نعيم له ولا سرور ولا لذة بل ولا حياة إلا بذلك، وهذا بمنزلة الغذاء والصحة والحياة، فإذا فقد غذاءه وصحته وحياته فاهلوم والغموم والأحزان مسارعة من كل صوب إليه”.

وأما غذاء البدن: ” فيحتاج البدن إلى ما به يخلف عليه ما حلته الحرارة - لضرورة بقائه - وهو الطعام والشراب ومتى زاد على مقدار التحلل ضعفت الحرارة عن تحليل فضلاته فاستحالت مواد رديئة فعاثت في البدن وأفسدت فحصلت الأمراض المتنوعة بحسب تنوع موادها وقبول الأعضاء واستعدادها وهذا كله مستفاد من قوله تعالى (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) (الأعراف : 31) فأرشد عباده إلى إدخال ما يقيم البدن من الطعام والشراب عوض ما تحلل منه وأن يكون بقدر ما ينتفع به البدن في الكمية والكيفية فمتى جاوز ذلك كان إسرافاً وكلاهما مانع من الصحة جالب للمرض، أعني عدم الأكل والشرب أو الإسراف فيه، فحفظ الصحة كله في هاتين الكلمتين الإلهيتين ولا ريب أن البدن دائماً في التحلل والاستخلاف”.

وعن الصحة القلبية والبدنية قال ابن القيم في الطب النبوي: ”فامتلاء البطن من الطعام مضر للقلب والبدن”.

“والضرر الذي يلحق الإنسان قد يكون من سوء المزاج بخروجه من الاعتدال وقد يكون من فساد العضو وقد يكون من ضعف في القوى والأرواح الحاملة لها”.

فالعلاقة وطيدة بين النفس والبدن يتأثر كلاهما ببعض مرضاً وصحةً.

ولا يفوتني في هذا المقام ذكر لفظة مهمة لشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- حيث قال: “لفظ الرياضة يستعمل في ثلاثة أنواع: رياضة الأبدان بالحركة والمشى، ورياضة النفوس بالأخلاق الحسنة، ورياضة الأذهان بمعرفة دقيق العلم”.
فكن رياضياً بالمعاني الثلاث لتنعم بصحة نفسية سليمة وسعادة قلبية وحياة طيبة.

10. بالمحاسبة

ويُقصد بها متابعة الإنسان لنفسه عملاً وقولاً واعتقاداً، ومعرفة نتائج ذلك هل هي حسنة أم سيئة، فما كان حسناً يزداد منه وما كان سيئاً يباعد عنه.
والسكينة عند المعاملة تحصل بثلاثة أشياء:
الأول: محاسبتها على طاعة قصر فيها من حق الله فلم تقم بها على الوجه الذي ينبغي.
ثانياً: أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيراً له من فعله.
الثالثة: أن يحاسب نفسه على أمر مباح أو معتاد لم يفعله. وهل أراد به الله والدار الآخرة.
أي أن المحاسبة تشمل التخطيط قبل العمل، والرقابة أثناءه، والمراجعة بعد العمل، فهي لفظ شامل لهذه المعاني.
ويقول كمال مرسي: “فمحاسبة الإنسان لنفسه وتقويمه لجهوده يوقفه على جوانب القوة والضعف”.

11. بالاستغفار والتوبة

ويأتي الاستغفار والتوبة بعد المحاسبة والمراجعة للأعمال الماضية، قال ابن القيم في مدارج السالكين: “التوبة لا تصح إلا بعد معرفة الذنب والاعتراف به وطلب التخلص من سوء عواقبه أولاً وآخرًا”.
وقال أيضاً: “ومنزل التوبة أول المنازل - الطرق - وأوسطها وآخرها فلا يفارقها العبد السالك ولا يزال فيها إلى الممات فالتوبة هي بداية الصبر ونهايته”.
وقال أيضاً في الطب النبوي: “وأما تأثير الاستغفار في دفع الهم والغم والضيق فمما اشترك في العلم به أهل الملل وعقلاء كل أمة، أن المعاصي والفساد توجب الهم والغم والخوف

وضيق الصدر، وأمراض القلب حتى إن أهلها إذا قضوا منها أوطارهم وسئمتها نفوسهم ارتكبوها دفعًا لما يجدونه في صدورهم من الضيق والهلم والغم وإذا كان هذا تأثير الذنوب والآثام في القلب فلا دواء لها إلا الاستغفار والتوبة.”
 وفي مدارج السالكين قال طبيب القلوب: “فالاستغفار يتضمن التوبة والتوبة تتضمن الاستغفار، وكل منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق، وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى فالاستغفار طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله.”

ومشاعر الذنب على نوعين:

- مشاعر سالبة وهي المنقطة القاتلة للإنسان وذاته التي تحول بين الإنسان والتصحيح.
- ومشاعر إيجابية وهي التي تقف الانسان على خطأه ومعرفة أثره على النفس ومن ثم التصحيح.

يقول كمال مرسي في كتاب تنمية الصحة النفسية: “فالتوبة عملية نفسية صحية يتم فيها التخلص من مشاعر الذنب (السلبية) وتحويل أفكار العجز والتشاؤم والحط من شأن الذات إلى أفكار ومشاعر كفاءة وتفاؤل ورفع من شأن الذات (المشاعر الإيجابية) فينبعث في النفس تفاؤل ورضا وإقبال على الحياة ورغبة في الإصلاح وترك الأخطاء.”

خلاصة الدراسات النفسية الإسلامية

تجمع الدراسات النفسية الإسلامية بين العناية بالروح (النفس)، والعقل والجسم وبين معرفة الله والإيمان به ومعرفة النفس وحاجاتها لله، وفهم المجتمع والتعامل معه. ويحكم ذلك كله العلم النافع والعمل الصالح مما يثمر الإنتاج والعمل الدؤوب والدعوة والمصابرة. وكل ذلك يفضي بالإنسان حياة طيبة وصحة نفسية في الدارين الدنيا والآخرة.

وعند معرفة الله والإيمان به ومعرفة النفس ومعرفة الناس يمكن للمرء استغلال الحياة الدنيا واستثمار نعم الله عليه وفق شرع الله وفطرته مما يحقق التوافق مع الحق والإيمان الصادق وبناء الحياة الطيبة لينعكس ذلك في الإنتاج والعمل الصالح، والصبر والدعوة والمجاهدة، وهو مفهوم شامل لصحة نفسية وحياة طيبة في الدنيا والآخرة. وهي خلاصة ابن القيم أيضا التي استخلصها من الكتاب والسنة والعقل والتجربة والملاحظة. فكانت شاملة متكاملة متينة.

سمات ومظاهر الصحة النفسية والحياة الطيبة

سنتناول الآن مؤشرات الصحة النفسية السليمة وهي:

1. العبودية لله وحده لا شريك له

وهي شرف الإنسان وأول معلم له يحفظه من الأعداء، يقول ابن القيم في روضة المحبين ونزهة المشتاقين: ”والحق الذي خلق به ولأجله الخلق هو عبادة الله وحده التي هي كمال محبته والخضوع والذل له ولوازم عبوديته من الأمر والنهي والثواب والعقاب”. فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة، ولهذا جعل تعالى اتباع رسوله عَلَمًا عليها وشاهدًا على مَنْ ادَّعَاهَا، فقال تعالى (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) (آل عمران:31).

2. الوسطية

تتكرر الوسطية كثيرا مع خلاصات ابن القيم في تحقيق السعادة النفسية، حيث قال: ”وما قام الوجود إلا بالعدل فمن اعتصم به فقد أخذ بحظه من مجامع الخير”. والوسطية تدخل في جميع جوانب الإنسان وأثناء تفاعله مع الآخرين سواء في العبادة أو الأكل والشرب أو النكاح أو النوم أو الأخلاق وهو ما نجده في القرآن الكريم مثل قوله تعالى (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) (الأعراف: 31). وهذه حقيقة ثابتة كلما انحرفت النفس عن “التوسط” انحرفت إلى طرفي نقيض، كما يوضح ذلك ابن القيم بخلاصة ثابتة حيث يقول: "فلا بد (للنفس) إذا انحرفت عن خلق التواضع أن تنحرف إما

إلى كبر وعلو وإما إلى ذل ومهانة وحقارة، وصاحب الخلق الوسط مهيب محبوب، عزيز جنابه، حبيب لقاءه". وكذلك ضرب أمثلة لمختلف الأحوال التي ينحرف فيها الإنسان من خلق سوي إلى خلقين ذميمين. فإذا انحرفت عن خلق التواضع انحرفت: إما إلى كبر وعلو وإما إلى ذل ومهانة وحقارة. وإذا انحرفت عن خلق الحياء انحرفت: إما إلى قحة وجرأة وإما إلى عجز وخور ومهانة، وهكذا مع جميع الأحوال.

ثم إن تحقيق التوازن بين البدن والروح في طبيعة الانسان أحد المرتكزات لتحقيق الشخصية السوية التي تتمتع بالصحة النفسية.

3. البركة

وهي تحقيق الانجاز بأسرع وقت وأقل جهد، لنفس العامل ولمجتمعه وأمته، وهي "أن يكون الإنسان خيراً في نفسه نافعاً لمن حوله مستثمراً أوقاته". والمعاصي تحقق بركة العمر والرزق والعلم والطاعة والدين والدنيا، وليست سعة الرزق والعمل بكثرتها ولا طول العمر بكثرته الشهور والأعوام ولكن سعة الرزق والعمر بالبركة فيه. فمن أحسن واتقى نال فضل البركة والسعادة، ومن أساء وطغى محقت بركة دينه ودينه. وحياة الإنسان بحياة قلبه وروحه.

4. الذكر

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) وإن للذكر أثر عظيم على البدن والقلب وعلى الحياة كلها، قال ابن القيم في الوابل الصيب: "وفي الذكر أكثر من مائة فائدة منها: أنه يزيل الهم والغم عن القلب، وأنه يجلب للقلب الفرح والسرور والبسط، وأنه يورث المحبة التي هي روح الإسلام، وقطب رحى الدين، ومدار السعادة والنجاة". وأضاف: "إن ذكر الله عز وجل يذهب عن القلب مخاوفه كلها وله تأثير عجيب في حصول الأمن، فليس للخائف الذي قد اشتد خوفه أنفع من ذكر الله عز وجل، إذا بحسب ذكره يجد الأمن ويزول خوفه حتى كأن المخاوف التي يجدها أمان، والغافل خائف مع أمنه حتى كأن ما هو فيه من الأمن كله مخاوف، ومن له أدنى حس قد جرب هذا والله المستعان".

ومن أبرز الإشارات على صحة النفس ذكر الله تعالى، والمسلم يعرفها من نفسه، فشتان بين اليوم الذي ذكر فيه ربه، واليوم الذي لم يذكره فيه، ويدخل في الذكر قراءة القرآن وأداء أذكار الصباح والمساء وغيرها من أذكار.

5. الصدق

ولاشك أن الصدق في التوجه والإرادة والقول والعمل، أحد أهم أسباب السعادة والراحة النفسية وأحد إشارات الصحة النفسية، يقول ابن القيم في الفوائد: “ليس للعبد شيء أنفع من صدقه ربه في جميع أموره مع صدق العزيمة في صدقه في عزمه وفي فعله فسعادته في صدق العزيمة وصدق الفعل، فصدق العزيمة جمعها وجزمها، وعدم التردد فيها، بل تكون عزيمة لا يشوبها تردد ولا تلوم فإذا صدقت عزمته بقي عليه صدق الفعل وهو استفراغ الوسع وبذل الجهد فيه وأن لا يتخلف عنه بشيء من ظاهره وباطنه فعزيمة القصد تمنعه من ضعف الإرادة والهمة، وصدق الفعل يمنعه من الكسل والفتور.”

وبينما ترى المدارس النفسية أهمية هذا المؤشر وتجعله ضرورة ومطلبًا فرديًا يؤكد ابن القيم على أنه استجابة لأمر الله سبحانه وتعالى.

6. الطمأنينة وفرح القلب

وهي منة وفضل من الله على عبده، يقول ابن القيم: “الطمأنينة إلى الله سبحانه حقيقة ترد منه سبحانه على قلب عبده تجمع عليه، وترد قلبه الشارد إليه فتسري تلك الطمأنينة في نفسه، ومفاصله وقواه الظاهرة والباطنة تجذب روحه إلى الله ويلين جلده وقلبه ومفاصله إلى خدمته والتقرب إليه ولا يمكن حصول الطمأنينة الحقيقية إلا بالله وبذكرة، وهو كلامه الذي أنزله الله على رسوله ﷺ.”

وفي الواقع الصحة النفسية شعور بالسعادة والطمأنينة وهي من الله سبحانه وأعظم مؤشرات الإيمان والعمل.

7. الرضا

وهو القبول القلبي والحالي، لا يتسخط صاحبه، ويرضى بقدر الله، يقول ابن القيم في مدارج السالكين: ”والرضا يشمل الرضا بربوبيته وألوهيته والرضا برسوله والانقياد له والرضا بدينه والتسليم له ومن اجتمعت له هذه الأربعة فهو الصديق حقًا، وطريق الرضا طريق مختصرة قريبة جدًا موصلة إلى أجل غاية ولكن فيها مشقة وعقبتها همة عالية، ونفس زكية، وتوطين النفس على كل ما يرد عليها من الله، وثمرة الرضا الفرح والسرور بالرب تبارك وتعالى”.

ولا يعني الرضا عدم التحرك وإهمال الأخذ بالأسباب وإنما يعني لزوم الهمة العالية بنفس راضية.

فيرضى الإنسان قبل العمل بالتوجه والطلب، مؤمنًا بالله راضيًا بقدره، ثم يرضى بعد الفعل، سواء قل أو أخطأ فيه أو أصابته مصيبة، فيسلم لقدر الله ولا يتسخط، ويسعى من جديد بقلب راضٍ. وهذا دليل على صحة النفس.

8. الأدب

وهو اجتماع خصال الخير في العبد وأدب المرء عنوان سعادته وفلاحه، وقلة أدبه عنوان شقاوته وبواره، فما استجلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب ولا استجلب حرمانها بمثل قلة الأدب.

والأدب هو الدين كله كما أكد ذلك ابن القيم في خلاصاته.

والأدب يكون مع الله عز وجل، ومع رسوله ﷺ، وأدب مع الخلق.

يقول ابن القيم في مدارج السالكين: ”والأدب ثلاثة أنواع: أدب مع الله سبحانه وأدب مع رسوله ﷺ وشرعه وأدب مع خلقه، فالأدب مع الله تبارك وتعالى هو القيام بدينه والتأدب بآدابه ظاهرًا وباطنًا، وأما الأدب مع الرسول ﷺ فكمال التسليم له والانقياد لأمره وتلقي خبره بالقبول، وأما الأدب مع الخلق فهو معالجتهم على اختلاف مراتبهم بما يليق بهم فلكل مرتبة أدب”.

9. التعاون والتكميل

وهي صفة تدل على سلامة النفس، فالتعاون بين المؤمنين أمر مطلوب وصحي، وينعكس جمال ذلك على النفس والمجتمع، يقول ابن القيم في مفتاح دار السعادة: ” فإن الكمال أن يكون الشخص كاملاً في نفسه مكملاً لغيره، وكمالها بإصلاح قوته العلمية والعملية، فصالح القوة العلمية بالإيمان وصالح القوة العملية بعمل الصالحات وتكميله غيره بتعليمه إياه وصبره عليه وتوصيته بالصبر على العلم والعمل”.

ويدخل في ذلك المواساة بالمال والجاه والبدن والخدمة والنصيحة والإرشاد والدعاء والاستغفار، وغيره، وعلى قدر الإيمان تكون هذه المواساة، كلما قوي الإيمان قويت المواساة. فصاحب النفس السليمة يقظ متحركٌ ينفع الناس ويسعى لتكميل نفسه وتكميل غيره.

10. التفاؤل

صاحب النفس السليمة يتفاءل ويستبشر، يقول ابن القيم في مفتاح دار السعادة يذم التشاؤم: ” فأين هذا التشاؤم من الفأل الصالح السار للقلوب المؤيد للآمال، الفاتح باب الرجاء، المسكن للخوف، الرابط للجأش، الباعث على الاستعانة بالله والتوكل عليه، والاستبشار المقوي لأمله السار لنفسه، فهذا ضد الطيرة “التشاؤم”، فالفأل يُفضي بصاحبه إلى الطاعة والتوحيد، والطيرة تفضي بصاحبها إلى المعصية والشرك”.
والتفاؤل مرتبط بالثقة في الله والرضا بقضائه فلن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، لا سخط على رزق ولا استعجال على خير ولا قلق من المستقبل.

11. الرغبة في الآخرة

ومن أهم علامات الصحة النفسية الرغبة في الآخرة بإيمان بها، واستعداد لها، يقول ابن القيم في مدارج السالكين: “فأعقل الناس من آثر لذته وراحته الآجلة الدائمة على العاجلة المنقضية الزائلة، وأسفه الخلق من باع نعيم الأبد وطيب الحياة الدائمة واللذة العظمى التي

لا تنغيص فيها ولا نقص بوجه ما، بلذة منقضية مشوبة بالآلام والمخاوف وهي سريعة الزوال وشيكة الانقضاء”. ولا شك أن الأمل في الآخرة والفوز بنعيم الجنة ورضا الله سبحانه يحث صاحبه على النشاط والجد، ويجفزه للمسابقة والعمل.

2. الصحة النفسية كما لخصتها الدراسات النفسية الحديثة

تعتمد الدراسات النفسية الحديثة في تحقيق الصحة النفسية على المحاور التالية:

- إشباع الحاجات الأولية والشخصية، سواء جسدية كالحاجة للطعام، أو اجتماعية نفسية كالحاجة للانتماء.
- تقبل الذات، بغض النظر عن ضعفها أو قصورها وتقبل الواقع الذي يعيشه والتخطيط لمستقبله وفق ما توفر له من معطيات.
- القدرة على ضبط الذات وتحمل المسؤولية فالشخص الذي يتمتع بصحة نفسية سليمة يمكنه التحكم في رغباته مهما كانت جامحة ويتصرف بمسؤولية ونضوج. ويصف ذلك بعض الباحثين بالتهذيب الذاتي أو التحكم في الذات.
- اكتساب الفرد المهارات اللازمة لإشباع حاجاته وتطوير ذاته.
- التفاعل مع المجتمع والآخرين، فيمكنه التعاون والتكامل وتقديم خدماته كما يدرك حاجته للآخرين ويقدرها وبذلك يحصل التوافق المثمر مع من حوله، ويظهر الانسجام في مواجهة الأزمات.
- والثبات وعدم التردد والاضطراب في اختيار القرارات في شعور الحياة المختلفة ثباتاً سهلاً فهم شخصيته وتوقع اختياراته، يصفه بعض الباحثين بالاتزان الانفعالي والثبات الوجداني ووجود حالة من التماثل بين الانفعالات ومثيراتها.
- المسايرة والمرونة فيتجاوز الصدمات التي قد تؤثر سلباً على حياته وقدرته على الاستجابة للمؤثرات في حياته فيقبل ما يطرأ عليه ويتعامل وفقه.
- اتخاذ أهداف واقعية، يمكنه تحقيقها في إطار إمكانياته وليست خيالية تعجيزية.
- القدرة على المواجهة، مواجهة الصراعات والاحباطات والأزمات والشدائد التي يتعرض لها المرء في حياته.

- العناية بالصحة الجسمية فالأمراض مجلبة للحزن والكآبة.

وإضافة لهذه المرتكزات والسبل لتحقيق الصحة النفسية، يذكر الباحثون الاستقلال الذاتي، والهدوء العقلي، والقدرة على الثقة المتبادلة والمحبة وغيرها مما وصلت له الدراسات النفسية الحديثة التي تركز على أساسين:

(1) الفهم السليم ومعرفة إمكانيات الفرد واستغلال ذلك.

(2) الفهم السليم للمجتمع وأنظمتها وأهدافه.

وهو خلاصة التوافق الذاتي والاجتماعي الذي مع حسن استغلال إمكانيات الفرد والمجتمع يوصل لمرحلة توافق عام وتفاعل وإنتاج وعمل واستقرار وهو مفهوم الصحة النفسية الشامل.

وفي الواقع تتأثر الصحة النفسية بطبيعة الظروف والبيئة والأحداث التي تراكمت على طول حياة المرء وقدرته على التكيف ودرجة تأثيره إضافة إلى رصيد الخبرات والتجارب والمهارات المكتسبة.

ولذلك نشدد على أهمية التربية والتنشئة الاجتماعية في تحقيق الصحة النفسية وعلى أهمية بناء الذات وتطويرها لتحقيق السعادة والاستقرار في الحياة.

وبعد هذه الرحلة مع تعريف الصحة النفسية ومناهج دراستها وسبل تحقيقها وسماتها، نكون قد لخصنا جزءاً مهماً وحاسماً في معرفة النفس البشرية لكنه غير كافٍ بعد لتحقيق الدراية الكافية لصناعة الهمة لذلك سنتناول في الحلقة السادسة المقبلة "النفس السوية والنفس المضطربة وعوائق الارتقاء" لتتقدم مسافات أخرى في رحلة صناعة الهمة.

إلى ذلك الحين، تأمل قول ابن القيم "العلم والعمل توأمان أهمهما علو الهمة"، و"لا تكون الروح الصافية إلا في بدن معتدل، ولا الهمة العالية إلا في نفس نفيسة". فاستعن بالدعاء والاجتهاد ولا تعجز!

النفس السوية والنفس المضطربة وعوائق الارتقاء

إن كل ضعف يعتري النفس السليمة يؤدي مباشرة إلى الاضطراب والمرض وكما اشتد وطال أمدّه كلما كانت النتائج كارثية بموت القلب.

ونطلق دائماً من الدراسات الإسلامية للنفس البشرية وعلى رأسها خلاصات ابن القيم في فهم سواء النفس واضطرابها، ولا شك أن تمام السواء النفسي يتحقق في رحاب الإيمان حيث يقول ابن القيم في إغاثة اللفهان: "فالنفس إذا سكنت إلى الله واطمأنت بذكره وأنابت إليه واشتأقت إلى لقائه وأنست بقربه فهي مطمئنة".

ولكل من سواء النفس واضطرابها سمات ومرتكزات.

وبينما يعتبر سواء النفس دليلاً على قوة النفس وصحتها يدل الاضطراب على مرض النفس وضعفها، وقد اختلفت المدارس النفسية في تحديد مرتكزات كل من السواء والاضطراب ويرجع ذلك أساساً للعقيدة التي يؤمن بها أصحابها والمفاهيم التي بنيت عليها دراساتها.

وتفوقت في هذا المجال الدراسات الإسلامية بإحاطتها بجانب الروح الذي أهملته الدراسات الغربية فكانت القاصرة.

مفهوم النفس السوية

لا بد أن السواء مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالهدف العظيم من خلق الإنسان وهو العبودية لله وحده لا شريك له، والتي تتحقق بأداء أوامره واجتناب نواهيه، وبالإيمان والاستقامة يصل المرء لحالة النفس المطمئنة وحالة القلب السليم ثم نتحدث عن عطاءات الهمة.

والأصل في السواء هو معرفة النفس ومعرفة الله سبحانه وعبوديته، كما جاء في الفوائد: "لا ينتفع بنعمة الله بالإيمان والعلم إلا من عرف نفسه ووقف بها عند قدرها ولم يتجاوزها إلى ما ليس له، ولم يتعد طوره ولم يقل: هذا لي. وتيقن أنه لله وبالله ومن الله، فهو الإيمان به ابتداءً وإدامة، لا سبب من العبد ولا استحقاق منه، فتذله نعم الله عليه وتكسره كسرة من لا يرى لنفسه ولا فيها خيراً البتة، وأن الخير الذي وصل إليه فهو لله وبه ومنه، فتحدث له النعم

ذلاً وانكساراً عجيباً لا يعبر عنه، فكلما جدد له نعمة ازداد له ذلاً وانكساراً وخشوعاً ومحبةً وخوفاً ورجاءً، وهذا نتيجة علمين شريفين: علمه بربه وكماله وبره وغناه وجوده وإحسانه ورحمته وأن الخير كله في يديه، وهو ملكه يؤتي منه من يشاء ويمنع منه من يشاء وله الحمد على هذا وهذا أكمل حمد وأتمه. وعلمه بنفسه ووقوفه على حدها وقدرها ونقصها وظلمها وجهلها وأنها لا خير فيها البتة، ولا لها ولا بها ولا منها وأنها ليس لها من ذاتها إلا العدم، فكذلك من صفاتها وكمالها ليس لها إلا العدم الذي لا شيء أحقر منه ولا أنقص، فما فيها من الخير تابع لوجودها الذي ليس إليها ولا بها.

فإذا صار هذان العلمان صبغة لها لا صبغة على لسانها علمت حينئذ أن الحمد كله لله والأمر كله له والخير كله في يديه، وأنه هو المستحق للحمد والثناء والمدح ودونها، وأنها هي أولى بالذم والعيب واللوم. ومن فاته التحقيق بهذين العلمين تلونت به أقواله وأعماله وأحواله وتخبطت عليه ولم يهتد إلى الصراط المستقيم الموصل له إلى الله، فإيصال العبد بتحقيق هاتين المعرفتين علمًا وحالًا، وانقطاعه بفواتهما، وهذا معنى قولهم: من عرف نفسه عرف ربه. فإن من عرف نفسه بالجهل والظلم والعيب والنقص والحاجة والفقر والذل والمسكنة والعدم عرف ربه بضد ذلك فوقف بنفسه عند قدرها ولم يتعد بها طورها وأثنى على ربه ببعض ما هو أهله، وانصرفت قوة حبه وخشيته ورجائه وإنابته وتوكله إليه وحده، وكان أحب شيء إليه وأخوف شيء عنده وأرجاه له، وهذا هو حقيقة العبودية والله المستعان". اهـ.

وسواء النفس هو الكمال الإنساني بحسب مصطلحات ابن القيم وهو يحتاج لقلب السليم كما ورد في إغاثة اللفهان: "قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيته، ومن كل شبهة تعارض خبره، فالقلب السليم هو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه من الوجه، بل قد خلصت عبوديته لله إرادة ومحبة وتوكلًا وإنابة وإخباتًا وخشية ورجاءً، ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسول الله ﷺ".

وعلامات سواء النفس أو الكمال الإنساني تتلخص في: العبودية لله تعالى، التوازن والوسطية، البركة، الذكر، الصدق، الطمأنينة، الرضا، الأدب، التعاون والتكميل، التفاؤل والرغبة في الآخرة.

وتحقيق الوصول إلى السواء اختصره بعض الباحثين في ستة عوامل:

- معرفة الله تعالى وطاعته.
- معرفة النفس البشرية وحاجتها لله سبحانه وتعالى.
- شمولية الإيمان بالحياة كلها واليقين بقاء الله.
- العدل في المعاملة والخلق في التعامل.
- الوسطية في تلبية الحاجات من الغذاء والشهوة.
- العمل والجد "المجاهدة".

وبقدر ما يحقق الإنسان العبودية المتضمنة لهذه العوامل الستة بقدر ما يحقق السواء. والعكس صحيح، بقدر ما تضعف عبودية الإنسان لله تعالى بقدر ما يضعف السواء وتميل النفس إلى الاضطراب.

فسواء النفس سبيله الإيمان والاستقامة كما اتفقت مع ذلك الدراسات الإسلامية النفسية. وخلاصة ابن القيم في تحقيق السواء أو الكمال الإنساني يكون بتحقيق العبودية لله وحده، وهذا يعني طاعة الله واجتناب نواهيه. وبالإيمان والاستقامة يصل المرء لحالة النفس المطمئنة وينعكس ذلك على جميع جوانب الإنسان النفسية والتربوية والاجتماعية والإيمانية بل وحتى السياسية والعسكرية. والإنسان السوي هو الذي يلبي نداءات الروح والجسد على حد سواء. فمن أشبع الجسد على حساب الروح وقع في الشذوذ والانحراف.

مفهوم النفس المضطربة

والنفس المضطربة هي النفس المريضة التي مرض قلب صاحبها. ويتجلى اضطرابها في أفكارها وتصوراتها وحركاتها وسلوكياتها. أما الشرك والكفر فقامة وذروة الاضطراب النفسي.

يقول ابن القيم في اضطراب النفس ومرض القلب: “القلب يعترضه مرضان يتواردان عليه إذا استحكما فيه كان هلاكه وموته، وهما مرض الشهوات ومرض الشبهات، هذا أصل داء الخلق إلا من عافاه الله.”

وقال أيضا - رحمه الله -: “مدار اعتلال القلوب وأسقامها على أصلين: فساد العلم وفساد القصد، ويترتب عليهما داءان قاتلان، وهما: الضلال والغضب، فالضلال نتيجة فساد العلم، والغضب نتيجة فساد القصد، وهذان المرضان هما ملاك أمراض القلوب جميعها.”

وأمرض القلوب أصعب من أمراض الأبدان، لأن غاية مرض البدن أن يفضي بصاحبه إلى الموت، وأما مرض القلب فقد يفضي بصاحبه إلى الشقاء الأبدي، عيادًا بالله تعالى. كما أوضح ذلك ابن القيم.

ويقول في الطب النبوي موضحًا التفاضل بين إصلاح البدن والقلب: “وإصلاح البدن بدون إصلاح القلب لا ينفع وفساد البدن مع إصلاح القلب مضرتة يسيرة جدا.”

ويقودنا هذا للحديث عن وصف القلب المنكوس كما أخرجه مسلم من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: “تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عودًا عودًا، فأبي قلب أشربه نكتت فيه نُكْتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى تعود القلوب على قلبين: قلب أسود مبرأداً كالكوز مجحياً (أي مقلوباً)، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكراً، إلا ما أشرب من هواه، وقلب أبيض فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض.”

وقال ابن القيم في إغاثة اللفهان مشخصًا هذا الداء: “ولما كان مرض البدن خلاف صحته وصلاحه وهو خروجه عن اعتداله الطبيعي لفساد يعرض له يفسد به إدراكه كليا كالعمى والصم والشلل أو يدرك الأشياء بخلاف ما هي عليه كإدراك الحلو مرًا أو يفسد حركته الطبيعية مثل: أن يضعف قوته الهاضمة أو الماسكة أو الدافعة أو الجاذبة، فيحصل من الألم بحسب خروجه عن الاعتدال فكذلك مرض القلب. ومرضه هو نوع فساد، يحصل له، يفسد به تصوره للحق وإرادته له، فلا يرى الحق حقا أو يراه على خلاف ما هو عليه

أوينقص إدراكه وتفسد به إرادته له، فيبغض الحق النافع أو يحب الباطل الضار أو يجتمع له وهو الغالب”.

والاضطراب يقود لموت القلب، جاء في إغاثة اللهفان: “القلب الميت الذي لا حياة فيه فهو لا يعرف ربه ولا بصيرة له بأمره وما يجبه ويرضاه بل واقف مع شهواته ولذاته، وكذلك القلب المريض هو قلب له حياة به علة فله مادتان يمدده هذا مرة وهذا أخرى وهو لما غلب منهما”.

وعن مسببات هذا المرض وهذا الاضطراب يقول ابن القيم: “والفتن التي تعرض على القلوب هي أسباب مرضها وهي فتن الشهوات وفتن الشبهات، فتن الغي والضلال، وفتن المعاصي والبدع، فتن الظلم الجهل، فالأولى توجب فساد القصد والإرادة والثانية توجب فساد العلم والاعتقاد”.

ويوضح ابن القيم أن مرجع هذا الاضطراب كله إلى الذنوب، سواء بحق الله تعالى أو النفس أو المجتمع.

فيقول في الطب النبوي: “والذنوب للقلب بمنزلة السموم، إن لم تكن تهلكه أضعفته ولا بد، وإذا أضعفت قوته لم يقدر على مقاومة الأمراض”.

والذنوب تضر القلب تماماً كما تضر السموم الأبدان على اختلاف درجات الضرر، وعلى رأس هذه المعاصي والذنوب الشرك ومن وقع فيه فقد وقع في أقصى درجات اضطراب النفس.

ثم يقدم ابن القيم في الفوائد الخلاصة النفيسة: “مبدأ كل علم نظري وعمل اختياري هو الخواطر والأفكار فإنها توجب التصورات، والتصورات تدعو إلى الإرادات، والإرادات تقتضي وقوع الفعل، وكثرة تكراره تعطي العادة، فصالح هذه المراتب بصالح الخواطر والأفكار وفسادها بفسادها”.

ويصل ابن القيم إلى تشخيص آلية الاضطراب إذ يوضح أن بدايتها تكون من إهمال الخواطر والأفكار، مما يوقع صاحبها في الفتن والشبهات والشهوات، وبالتالي ولوج مستنقع الذنوب والمعاصي، ليقع المرء في القلق والحيرة والمرض والاضطراب.

يقول ابن القيم في الفوائد: ”وأما الخطرات فشأنها أصعب فإنها مبدأ الخير والشر، ومنها تولد الإرادات والهمم والعزائم فمن راعى خطراته ملك زمام نفسه وقهر هواه ومن استهان بالخطرات قادته قهرا إلى الهلكات”.
وكما أن النفس السوية تركز في رقيها على عبودية الله سبحانه، فإن النفس المضطربة تركز في دنوها على عبودية الهوى والذات، وافتقاد التوازن بين حاجات البدن والروح.

وقد لخص بعض الباحثين عوامل الاضطراب كما يلي:

- الجهل بالله.
- الجهل بالنفس.
- عدم الإيمان بالآخرة “عبودية الدنيا”.
- الظلم في المعاملة وسوء الخلق في التعامل.
- الإفراط في تلبية الحاجات الغذاء والشهوة.
- العجز والكسل “ضعف الثقة”.

وهنا يبرز إدخال الجانب الروحي كخلق وكمصدر وكغاية وهو ما أغفلته الكثير من الدراسات النفسية الغربية الحديثة.

ومن جمال هذا الدين أن الله خلق الإنسان وجعل له أهدافاً سامقة ومراتب عالية ليلبغها، وبين له ضعفه وأهمية إيمانه واستعانتة بربه، وفي حال الخطأ والانحراف عن جادة الطريق، جعل له التوبة منفذاً ينفذ منه فيتخلص من اضطرابه ويرتقي.
ولذلك يملك العبد في يده طوق النجاة وحبل الانقاذ، إنها التوبة والاستدراك، فأبي شيطان يجرأ على هزيمته؟!!

معيار القياس

إن الركون لمعايير البشر لتحديد الطيب من الخبيث والخير من الشر والمقبول من المرفوض يخلق الاضطراب والفوضى، لأنه خاضع لأذواقهم المختلفة التي يصعب ضبطها، ولذلك يقول ابن القيم في مدارج السالكين: “القاعدة الأولى: أن الذوق والحال، والوجد هو حاكم أو محكوم عليه، فيحكم عليه بحاكم آخر، ويتحاكم إليه؟ فهذا منشأ ضلال من ضل من المفسدين لطريق القوم الصحيحة حتى جعلوه حاكماً. فتحاكموا إليه فيما يسوغ ويمتتع وفيما هو صحيح وفساد وجعلوه محكماً للحق والباطل ثم إنه وقع من تحكيم الذوق من الفساد ما لا يعلمه إلا الله فإن الأذواق مختلفة في أنفسها كثيرة الألوان، متباينة أعظم التباين”.

ولذلك فإن الحكم على السلوكيات والعقائد والأقوال أصحححة سوية هي أم فاسدة مضطربة؟ يعتمد على الكتاب والسنة، يقول في ذلك ابن القيم: “القاعدة الثانية: أنه إذا وقع النزاع في حكم فعل من الأفعال، أو حال من الأحوال أو ذوق من الأذواق، هل هو صحيح أو فاسد؟ وحق وباطل؟ وجب الرجوع فيه إلى الحجة المقبولة عند الله وعند عباده المؤمنين وهي وحيه الذي تتلقى أحكام النوازل والأحوال والواردات منه، وتعرض عليه وتوزن به فما زكاه منها وقبله ورجحه وصححه فهو المقبول، وما أبطله وردة فهو الباطل المردود، ومن لم يبن على هذا الأصل علمه وسلوكه وعمله فليس على شيء من الدين إنما معه خدع وغرور”.

فلا يحدد المرء الصواب من الخطأ، عن طريق هواه وميوله الذي هو طبع الحيوانات وأشباهاها من بني آدم، فتميل بطبعها ونفرة طبعها، بل يجب أن يكون وفق الإسلام وشريعة الله، فما أمر به الله أخذ به وما نهى عنه انتهى.

ومما يجدر ذكره أن المقياس الشرعي الرباني يتوافق مع ثلاث محاور رئيسة، وهي الفطرة السليمة والعقل والغاية من هذه الحياة. ومن خالف أحد هذه المحاور أو بعضها أو كلها وقع في الاضطراب ولذلك حفظها الشرع فأمن المسلم من هذا المرض.

ومعلوم أن الشريعة توافقت الفطرة، فهي تؤكد ما استقر في فطرة الإنسان وأقرته العقول الصحيحة، فمن الفطرة أن يكره الإنسان الشر وخصاله، وأن يحب الخير وخصاله.

يقول ابن القيم في مفتاح دار السعادة: "لا ريب أن التدين بالشرائع يقتضي الاستحسان والاستقباح ولكن الشرائع إنما جاءت بتكميل الفطر وتقريرها لا بتحويلها وتغييرها، فما كان في الفطرة مستحسنًا جاءت الشريعة باستحسانه فكسته حسنًا إلى حسنه فصار حسنًا من الجهتين، وما كان في الفطرة مستقبحًا جاءت الشريعة باستقباحه فكسته قبحًا إلى قبحه فصار قبيحًا من الجهتين".

وكذلك العقل يرفض الشر ويقبل على الخير، يقول ابن القيم في مفتاح دار السعادة: "إن الحسن والقبح صفات ثبوتية للأعمال معلومة بالعقل والشرع، وأن الشرع جاء بتقرير ما هو مستقر في الفطر والعقول من تحسين الحسن والأمر به، وتقبيح القبيح والنهي عنه وأنه لم يجيء بما يخالف العقل وفطرته".

وأضاف: "وأما أمره وشرعه ودينه فكماله غاية وسعادة في المعاش والمعاد ولا ريب عنه العُقلاء أن وجه الحسن فيه أعظم من وجه الحسن في الأمور الحسية وإن كان الحسن هو الغالب على الناس وإنما غاية أكثرهم إدراك الحسن والمنفعة في الحسيات وتقديمها وإيثارها على مدارك العقول والبصائر قال تعالى (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)".

ففي الأخير تبقى الغاية من هذه الحياة الفوز بالآخرة، وهو تمام السعادة للإنسان، ويجب لأجل تحقيق ذلك أن يكون السلوك الإنساني منسجمًا مع غايته النهائية التي حددها له الله خالقه سبحانه.

والخلاصة في سواء النفس واضطرابها أن الحكم على السلوكيات والقلبيات إن كانت على سواء أو اضطراب، يكون وفق المقياس الشرعي الإسلامي، وهو المقياس الوحيد الذي يتوافق مع الفطرة والعقل والغاية من الخلق والهدف الأخروي كل ذلك تحت أمر الله سبحانه وتعالى.

وهذا المعيار هو أدق المعايير السلوكية وأفضل المحركات في بناء الشخصية وتقديمها وقياس سوائها وشدوذها.

لذلك لا بد من الرجوع الى المصدر الإلهي للحكم، لتفاوت البشر في أذواقهم وآرائهم وتوجهاتهم كما أن الأكثرية منهم يجهلون ما يصلحهم وما يضرهم.

والحكم على سواء شخص أو اضطرابه في ضوء الشريعة الغراء لا يكون فقط بحسب الأهداف التي حققها بل وأيضا الأساليب التي اعتمدها في تحقيقها، فمن كان عمله مشروعاً ووسائله مشروعة قد أحلها الله، فهو السوي، وبمقياس الشرع لا نقع في حيرة ولا لبس ولا حتى ظلم.

والمنهج الإسلامي يبني شخصية متحصنة من العناد المفرط الطاغى والتفريط والانقياد الأعمى والتهيه والتسويق. فيصنع شخصية الحازم الملتزم صاحب المعرفة. ولاشك أن أسمى وأكمل صور النفس السوية تتجلى في شخصية رسول الله ﷺ بموازنته بين الحاجات المادية والروحية فقدم النموذج المثالي للنفس المطمئنة التي تحققت فيها جميع مؤشرات الصحة النفسية في أعلى مستوياتها. وبهذه القدوة وبأنوار الكتاب والسنة يمتلك المسلم معياراً شرعياً شرعه الله تعالى وبيّنه رسوله ﷺ، يتوافق مع الفطرة والعقل والغاية من الخلق. وهو معيار واقعي يقدم نموذجاً رفيعاً طموحاً، يراعي ضعف الإنسان وكبواته، على عكس المعيار القيمي في الدراسات الغربية، الذي يفترض الكمال المطلق وهو أمر مستحيل.

مراتب السواء

مراتب السواء هي: الإحسان، الإيمان، الإسلام.

فرأس السواء والكمال الإنساني، هي مرتبة المحسن، يليها مرتبة المؤمن يليها مرتبة المسلم.

وهكذا المسلم الذي لم يكن محسناً يتحول لمقتصد، وإن لم يكن كذلك تحول لظالم لنفسه.

والنفس السوية تصل إلى أعلى السواء والكمال الإنساني بالمسابقة بالخيرات والإحسان، وتصل إلى المرتبة الوسطى بالإيمان والاقتصاد في الطاعات، وأما أدنى مراتب السواء فهي المسلم الظالم لنفسه الذي يحفظ بعض الخير فيمنع سقوطه في الاضطراب والحيرة.

وعن الفروق بين هذه المراتب يقول ابن القيم في طريق المهجرتين وباب السعادتين: ”وأما السائرون إليه فظالمهم قطع مراحل عمره في غفلاته وإيثار شهواته ولذاته على مرضي الرب سبحانه وأوامره مع إيمانه بالله وكتب ورسله واليوم الآخر، لكن نفسه مغلوبة معه مأسورة مع حظه وهواهن يعلم سوء حاله ويعترف بتفريطه ويعزم على الرجوع إلى الله فهذا حال المسلم”.

“وأما الأبرار المقتصدون فقطعوا مراحل سفرهم بالاهتمام بإقامة أمر الله وعقد القلب على ترك مخالفته ومعاصيه فهمهم مصروفة إلى القيام بالأعمال الصالحة واجتناب الأعمال القبيحة”.

ثم السابقون بالخيرات: ”إنهم قوم امتلأت قلوبهم من معرفة الله وعمرت من محبته وخشيته وإجلاله ومراقبته فسرت المحبة في أجزائهم فلم يبق عرق ولا مفصل إلا وقد دخله الحب، فلا يتقلب إلا في شيء يظهر له فيه مرضاة ربه وإن كان من الأفعال العادية الطبيعية قلبه عبادة بالنية وقصد الاستعانة به على مرضاة ربه”.

والاضطراب الكامل هو الخروج من الإسلام وانطماس القلب وطبعه بالشرك والبدع يقول ابن القيم في طريق المهجرتين وباب السعادتين: ”أما الأشقياء فقطعوا تلك المراحل - مراحل حياتهم - سائرين إلى دائرة الشقاء، متزودين غضب الرب سبحانه، ومعاداة كتبه ورسله وما بعثوا به، ومعاداة أوليائه، والصد عن سبيله، فقطع هؤلاء الأشقياء مراحل عمرهم في ضد ما يحب الله ويرضاه”.

نسبية السواء والاضطراب

يقول ابن القيم في إغاثة اللهفان: “والنفس قد تكون أمارة، وتارة لوامة، وتارة مطمئنة بل في اليوم الواحد والساعة الواحدة يحصل هذا منه وهذا، والحكم للغالب عليها من أحوالها”.

ومما يجب ذكره في هذا المقام هو أن العبودية منقسمة على القلب واللسان والجوارح وعلى كل منها عبودية تخصه.

والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب ومستحب وحرام ومكروه ومباح وهي لكل واحد من القلب واللسان والجوارح.

لذلك فيتم الحكم أولاً على الأقوال، ثم الأعمال ثم القلبيات، ومن ثم يتميز المرء السوي الصالح من المضطرب الطالح. وطوبى لمن وافقت نواياه أقوله وأفعاله.

العقبات أمام الارتقاء

والآن بعد الإحاطة علمًا بطبيعة النفس البشرية وحالات السواء والاضطراب، نتحول للحديث عن العوائق التي تعرقل المسيرة يا من ينشد صناعة الهمة والارتقاء. ومن جميل ما طرحه ابن القيم في دراسته للنفس البشرية تقسيمه للعقبات في ارتقاء الإنسان، إلى 3 أنواع وهي: العوائد، والعوائق والعلائق.

وعن الفرق بين العوائق والعلائق، يقول ابن القيم: “العوائق هي الحوادث الخارجية والعلائق هي التعلقات القلبية بالمباحات ونحوه”.

أما العوائد: فما اعتاده الناس وجرت به العادة، جاء في الفوائد: “السكون إلى الدعة والراحة وما ألفه الناس واعتادوه من الرسوم والأوضاع التي جعلوها بمنزلة الشرع المتبع بل هي عندهم أعظم من الشرع فإنهم ينكرون على من خرج عنها وخالفها ما لا ينكرون على من خالف صريح الشرع”.

والأصل في صاحب الهمة أن يزن العادات في ميزان الحق، فما توافق معه وكان حسنا، أخذ به وما كان غير ذلك فلا يلتفت له ولا يبالي فالأهم في طريقه هو موافقة الحق لا الخلق. وهذه العقبة اجتماعية وتتعلق بالوسط الذي يعيش فيه الفرد.

أما العوائق: يقول عنها ابن القيم في الفوائد: ”فهي أنواع المخالفات ظاهرها وباطنها، فإنها تعوق القلب عن سيره إلى الله وتقطع عليه طريقه وهي ثلاثة أمور: شرك وبدعة ومعصية، فيزول عائق الشرك بتجريد التوحيد، وعائق البدعة بتحقيق السنة، وعائق المعصية بتحقيق التوبة، وهذه العوائق لا تبين للعبد حتى يأخذ في أهبة السفر ويتحقق بالسير إلى الله والدار الآخرة فحينئذ تظهر له هذه العوائق ويحس بتعويقها له بحسب قوة سيره وتجرده للسفر، وإلا فمادام قاعداً لا يظهر له كوامنها وقواطعها”.

وهذه عقبة مرتبطة بالفرد نفسه أكثر من ارتباطها بالمجتمع، ولعل أهم نقطة في وصف ابن القيم أن هذه العوائق لا تظهر إلا لمن يعمل ويجد وينشط، وأما الكسول فلا يشعر بشيء.

أما العلائق: فيصفها ابن القيم في الفوائد فيقول: “فهي كل ما تعلق به القلب دون الله ورسوله من ملاذ الدنيا وشهواتها ورياساتها وصحبة الناس والتعلق بهم، ولا سبيل له إلى قطع هذه الأمور الثلاثة ورفضها إلا بقوة التعلق بالمطلب الأعلى”.

وتشكل العلائق عقبة أمام رقي النفس، كونها تخضعها للهوى وللشهوات، وهي متصلة من جهة بالمجتمع ومن جهة بسلوك الإنسان في هذا المجتمع، ومن جهة ثالثة بقلب الإنسان ونفسه.

وبالمقارنة نجد أن الدراسات النفسية قد اتفقت مع خلاصة ابن القيم بشأن العوائق النفسية والاجتماعية مع تفوقه عليها بالعائق السلوكي القلبي. لكن الدراسات النفسية أضافت لهذه العقبات، العوائق الجسمية والمادية والاقتصادية بشكل أكثر وضوحاً مما أشار إليه ابن القيم.

ومن هذه المعوقات:

العوائق الجسمية (القدرات الجسدية والإعاقات)، والنفسية (الذكاء والقدرات العقلية والمهارات)، والمادية والاقتصادية (الوضع المادي والأسباب المادية) والعوائق الاجتماعية، (كالعادات والتقاليد والقوانين).

وفي الواقع فإن وجود العوائق في حياة الإنسان عامل صحي للنفس، لأن بلوغ الأماني يستوجب بذل الجهود والتضحيات لتذوق لذتها واستشعار روعة الإنجاز. ولا تبني الأمجاد إلا بالتضحيات.

ويتفاعل المرء مع هذه العوائق وفق سلوكين، سلوك ثابت موروث، وسلوك متغير مكتسب ومتعلم تنحته الخبرات والنصائح.

وبعد هذه المعرفة، ما أن يصل المرء لمرحلة التوافق والرضا بالرغم من العقبات في طريقه والتحديات ينعكس نتاج همته كالنحلة تارة وكالنحلة أخرى، روحه لا تزال تواقه.

المطلوب من صانع الهمة

- تربية وتقوية القوتين العلمية والعملية، الأولى عن طريق الإيمان والعلم النافع، والثانية عن طريق تقوية الإرادة والمحبة بعمل الصالحات وأنواع الخير. والتكامل مع الغير عن طريق "التواصي بالحق والتواصي بالصبر" ويقتضي ذلك بيان الحق من الباطل واجتناب الرذائل وتصبير النفس في مقتضى العبودية لله وحده.
- معرفة الهدف الأكبر من حياة الإنسان وهي العبودية لله بمفهومها الشامل، وتحديد أهداف صغرى لتنظيم حياة الإنسان والاستفادة منها.
- حفظ العقل والاهتمام به. بعيداً عن الآفات والخرافات ووصله بالله تعالى بقراءة القرآن وبالنفكر والتعلم وبحث المعرفة وبالاحسان.
- الاعتماد على المرجعية الثابتة وهي المقياس الشرعي الإسلامي، فالحق يتبع لا الخلق، والمنهج هو الكتاب والسنة.
- تقوية الإرادة والترفع عن سفاسف الأمور ومناشدة معاليها.

- تلبية حاجات الإنسان الطبيعية البدنية والروحية والنفسية بشكل متزن لا إفراط ولا تفريط فيه.
- الحرص على الصدق دائماً لكسب المصداقية والترفع عن الكذب وورطاته في التبرير، وإن اضطر المرء فليستعمل المعارض ولا يكذب.
- العمل على بناء الذات وشحن الهمة باستمرار.
- الابتعاد عن مواطن الفتن والانتكاس ومثبطات الهمم.

بهذا الجمع نكون وصلنا لنهاية مرحلة التأصيل والتنظير لمفهوم النفس البشرية ولوازم صناعة الهمة، وستحول الآن للتطبيقات العملية، ولامتحانات إثبات الوجود، فبعد العلم يجدر العمل، وبعد المعرفة يجب ترجمة المفاهيم لحقائق ملموسة في حياة صانع الهمة. وهو ما سنتناوله في الحلقة السابعة المقبلة بعنوان “معسكر التدريب لصناعة الهمة”. وإلى ذلك الحين ردد معي كلمات نبي الله موسى عليه السلام: “لا أبرحُ حتى أبلغُ!

معسكر التدريب لصناعة الهمة

لماذا معسكر التدريب؟

لأن التنظير لا يكفي لصقل المهارات وصناعة الهمة والخروج من روتين الضعف والبطالة إلى فضاء القوة والمسابقة. حيث قضى الله أن كل نهضة أو انتصار تستوجب الإعداد. قال تعالى (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ).

ومعسكر التدريب للنفس مرحلة مهمة جدًا ومصيرية في تغيير حال المرء من الضعف إلى القوة ومن الكسل إلى النشاط ومن دنو الهمة إلى علوها.

ثم لأن الإنسان قبل معسكر التدريب وبعده، يختلف بشكل كبير من ناحية بنيته وعطاءاته وقدرته على التحمل ورصيد تجاربه وطموحاته، ولذلك تشترط قيادة الجيوش على الجندي المرور بمعسكر التدريب بداية قبل استلام أي مهام، وكذلك الشركات، تطلب من موظفيها دورات تدريبية عملية قبل أن يتحمل الموظف مسؤولية الأعمال.

الشاهد أن معسكر التدريب الذي نتحدث عنه اليوم يعمل بنفس المبدأ إلا أنه يعتمد على شروط تختلف عن الميادين الأخرى ليكون مؤثرًا بالشكل المطلوب.

وسنعمد في معسكرنا قاعدة (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) فلن نسعى لأقل من الأفضل، هذه قاعدة سنعمدها طوال مسيرتنا.

قال تعالى (فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۗ وَوَلَّيْنَاكَ هُمْ أَوْلُو الْأَلْبَابِ) (الزمر : 16-17).

شروط معسكر التدريب لصناعة الهمة

1. تحديد خارطة الأهداف على 3 مستويات

لابد قبل الانطلاق في معسكر تدريب صناعة الهمة، أن تكون قد حددت خارطة أهدافك، ولست مطالبًا بتحقيق أهدافك جملة واحدة، بل الحكمة تقضي بالتدرج والتأني فقليل دائم خير من كثير منقطع.

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : سئل النبي صلى الله عليه وسلم أي الأعمال أحب إلى الله قال: “أدومها وإن قل” (صحيح البخاري).

وإن هذا الحديث يعد سرًا من أسرار صناعة الهمة وبناء الذات وتحقيق التغيير المنشود. وبالنظر لطبيعة الهمة التي نطمح لصناعتها فسوف نحدد 3 مراحل لأهدافنا، بمعنى سيكون لدينا 3 مستويات من الأهداف، (الأول والثاني والثالث) لتحقيقها خلال معسكر التدريب.

قال تعالى (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) (آل عمران: 133).

■ معسكر التدريب: المستوى الأول (صناعة الحزم)

ويهدف معسكر التدريب لصناعة الهمة في المستوى الأول إلى صناعة الحزم وتعويد النفس على الانضباط، وهي أهم مرحلة يجب على المسلم الانطلاق منها وإلا فإن كل ما تسعى له سيجهضه التسويف والتواكل والكسل. وسنلاحظ أن صفة الانضباط هي أول عامل للإنتاجية والفعالية في كل المجالات ولذلك يتم وضع أنظمة مراقبة وتفتيش لضمان هذا الانضباط. وتعد شرطاً أساسياً في الميدان العسكري وصناعة الجيوش.

معسكر التدريب: المستوى الثاني (التطوير والبذل)

ويشمل أهداف الإنجاز، وتعويد النفس على العطاء والبذل والمسابقة، وتطوير المهارات واكتساب الخبرات، وهي مرحلة ستكون سهلة نسبياً بعد تحقيق الأولى، لأنها تتوج ثمار الصبر والمصابرة.

معسكر التدريب المستوى الثالث: (السبق والتميز)

يشمل هذا المستوى أهداف التميز والخصوصية والمسابقة، وهي الأهداف التي كنت تعدها جباً وصعبة المنال، كما قيل لخالد رضي الله عنه حين أسلم متأخراً: أين كان عقلك

يا خالد، فلم تر نور النبوة بين ظهرايكم منذ عشرين سنة؟! فقال: "كان أماننا رجال كنا نرى أحلامهم كالجبال".

فاجعل مقياسك الجليل المنفرد، لا تقبل بغيره، فكلما نقص المقياس كلما ضعفت الهمة وعجز البذل. واحذر أن تشغلك مقاييس مضطربة.

ووفق هذا المبدأ جاء حديث رسول الله ﷺ: "إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ".

2. هبة النفس للانطلاق

قبل الانطلاق في معسكر التدريب لصناعة الهمة، عليك يا من تنشدهم الهمة أن تقطع وصال اهتمامك بالبشر ونظرتهم إليك وتقييمهم لك. اجعل الانطلاق خالصة لله مولاك، منه ستستمد القوة وترجو المعية.

فبوصاله سبحانه وتعالى وبالإخلاص إليه ستتذلل لك العقبات وستحقق ما يعجز عنه من تعلقت آماله بالناس.

فهناك أسرار لا نكتشفها إلا إذا انغمسنا بصدق وإيمان لا نبالي إلا برب العالمين.

ولذلك بقدر توكلك على الله بقدر ما تحني من بركات هذا التوكل طيلة مسيرة التدريب ولا أبالغ إن وصفتها بالكرامات والفضل العظيم!

ثم إن التركيز على مرضاة الله وحده سبحانه تعيينك كثيراً في التخلص من الرواسب القديمة التي كانت تشكل عائقاً في حياتك، سواء رواسب التربية السيئة أو الجوار المؤذي أو الصحبة المستنزفة أو غيرها من سلبيات، وقد ثبت في نصوص الشريعة والتجربة أن السعي لتحقيق مرضاة الله يكسبك تلقائياً مرضاة العباد وإن طال الزمن، لذلك فلا تشغل وقتك وجهدك في محاولة إرضاء الناس ما دام هدفك الأسمى إرضاء خالقك سبحانه.

قال تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ) (العنكبوت: 10).

وعن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً: إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله، وأن تخدمهم على رزق الله، وأن تدمهم على ما لم يؤتكَ الله. إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره.

وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من التمس رضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس؛ ومن التمس رضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس". رواه ابن حبان في صحيحه.

فافتح صفحة جديدة ترمق خلالها السماء وأنت على ثقة أن البيعة لله وحده لا شريك له. وهذه التهيئة النفسية هي ضبط النية والإخلاص لواحدٍ أحدٍ وأيضاً قطع لسبيل المرجفين والمفسدين.

3. الرضا بما قسمه الله لك والتكيف معه

حين نتحدث عن صناعة الهمة فنحن نتحدث عن إخراج أفضل نسخة من نفسك، إننا نتحدث عن تأهيلك لتكون أفضل صورة لك.

وبالتالي هذا يستدعي الرضا بما قسمه الله لك من تفاصيل ترافقك، سواء جسدية أو عقلية أو عائلية أو ظروف المحيط أو أي ظرف تعيش فيه، فمعسكرنا صالح لكل زمان ومكان، لا يتطلب منك عدة ولا عتاداً، إنما رأس مالك نفسك الموحدة المخلصة لله وبقينك الذي يشع في الأفق في مرمى الأهداف والباقي يُسخر لأجل ذلك.

فلا يهم أن تكون فقيراً أو غنياً، معسراً أو موسراً، سليماً أو معاقاً، متزوجاً أو أعزباً، شاباً أو كهلاً، امرأة أو رجلاً، كل هذه التفاصيل هي غير مهمة ولا ملزمة، بل يكفي أن تكون مسلماً ينشد التغيير.

وهذه النقطة مهمة جداً لتجاوز العقبات فلا يقال "لا يمكنني وظروفي لا تسمح"، بل كل مسلم فارس ميدان يمكنه أن يتحدى الصعاب بقلب نابض بالإيمان واليقين، ولدنيا في التاريخ والحاضر نماذج مبهرة للعطاء الإنساني حين يؤمن صاحبه بأنه قادر على تحقيق القفزات.

لذلك من المهم الحرص على وضوح الرؤية منذ الانطلاقة بلا لجلجة أو ارتياب.

ثم إن بعض المعطيات في حياتك يمكننا تغييرها للأحسن بحسب ما يتيسر لنا من الأسباب، فدوام الحال من المحال ولا يجب الركون دائماً للواقع دون محاولة تغييره فشيمة المسلم السعي للارتقاء.

4. تقييم قدراتك وصدقك مع نفسك

من المهم جداً أن تكون عارفاً بنفسك صادقاً معها لا تكذب عليها، فمثلاً أنت تعلم جيداً قدراتك في الحفظ، فلن تقرر حفظ القرآن في شهر، وأنت تعلم أن هذا أمر مستحيل، إذن لتجعل سقف توقعاتك يتواءم وقدراتك، فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها، واعلم أن العبقريّة تتفجر حين تكون في أمر تحبه وتميل إليه، وأنت أدري بنفسك، ما تميل له وتهواه من أعمال وطموحات.

كن صادقاً مع نفسك تماماً، ولا تحاول أن تخدعها لتبدو بشكل جذاب للآخرين أو لتلبي رغبات الآخرين.

ويدخل في ذلك تحديد عيوبك للتعامل معها في كل ما سيأتي.

لذلك فأنت وحدك من يستطيع التقرير أن هذا المقدار مناسب أم أقل، أو أن هذا الهدف سيكون الأفضل أم غيره، وأنت وحدك من يعرف كيف يوظف قدراته بكل قصور وعيوب لأفضل عطاء دون غش أو تحايل، فهذا مضمار سباق لا يمكن فيه الخداع لأن كل خداع فيه هو خداع لنفسك!

5. ضبط مستوى الهمة

يختلف المقبلون على معسكر التدريب من ناحية مستويات الهمة والإقبال، لذلك فإن مستويات الأهداف تتغير بحسب الشخص وظروفه وقدراته، فالملتزم الذي لا يعاني مشكلة الانضباط والحزم يمكنه أن ينطلق من مستوى همة أعلى من غيره وصاحب الهمة أساساً بغض النظر عن مستوى علو هذه الهمة، يمكنه أن يصل لمستويات أعلى وأكثر إنتاجية وتأثيراً بفضل معسكر التدريب، وكلما ارتفع المسلم درجة في سلم الهمم كلما كبرت مشاريعه وتألفت أهدافه وكبرت طموحاته.

الانطلاقة مع معسكر التدريب الأول: (صناعة الحزم من 3 إلى 6 أشهر)

في هذا المستوى ننتقل من مرحلة الانفلات واللامراقبة إلى مرحلة الانضباط التام والمراقبة، ولكن لن تكون مراقبة عادية أو من طرف ثاني، بل ستكون خشيتك من الله وسعيك لمرضاته هي الوازع الذي يدفعك للعمل والإتقان، تستحضر في ذهنك دائماً أن الله يراك، وأنت قد عاهدته على التغيير للأفضل وترجو معيته فلا تعمل ما يجعلك تخسر هذه المعية. ولا أخال وجود دافع يحرض على العمل بحزم، أكثر من استشعار المسؤولية والأمانة والخشية من الله سبحانه. وذلك دأب المخلصين.

فالمخلص أشد الناس رقابة لنفسه وإتقاناً لعمله وتفانيًا في أداء واجباته، بغياب المراقبة الخارجية أو بوجودها.

ولأن معسكر التدريب الأول يشمل صناعة الحزم وكسب معية الرحمن سبحانه، لذلك فإن أول أهدافه سيكون ضبط النفس على الاستقامة والنظام وحسن الإدارة، وتختلف البدايات بحسب مستويات همة أصحابها في المعسكر.

ولأجل تقييم جاد لنتائج التدريب، يجب أن يصنع المتدرب جدولاً بالأيام لمدة المستوى الأول، أي لثلاث أشهر بحيث يضع علامة إنجاز على كل يوم أدى فيه التزاماً بعينه (ولدينا 15 التزام في هذه المرحلة)، بشكل تام ومنضبط بالوقت، فإن قصر أو تخلف، وضع علامة تقصير، وفي آخر مدة المعسكر، يجمع علامات الإنجاز والتقصير فإن كان الفارق كبيراً لصالح التقصير، مددنا مدة التدريب لثلاثة أشهر أخرى.

التزامات المستوى الأول من معسكر التدريب

ويجدر بالمسلم في هذا المستوى الحرص على تحقيق:

1. الالتزام المنضبط بأوقات الصلاة، فإن كنت رجلاً ففي المسجد (بحسب ما

تسمح به ظروفك) وإن كنت امرأة ففي البيت أفضل، والصلاة هي العماد وهي الركيزة التي تتوطد بها علاقة العبد بالله وترتقي لأفضل المراتب، فإذا صلحت صلح عملك وإذا فسدت فسد عملك، وهي أول ما يُسأل عنه العبد. لذلك

أول ما عليك ضبطه علاقتك مع ربك وإيفاء واجباتك في العبادة حقها غير منقوص.

2. الالتزام التام والحازم بأداء أذكار الصباح والمساء وهذا يعني توفير كتيب الأذكار واقتطاع وقت للخلوة وترديد الذكر في وقته المحدد بشكل جاد. فصاحب الهمة معرض لسهام العين والحسد فعليه بالأذكار الماثورة ليدرأ عن نفسه ما قد يصيبه من سهام القدر على يد الحساد كما أن الذكر يحفظك من الوسواس الخناس.

3. الالتزام بورد من القرآن بشكل يومي، فهو زادك في المسيرة ورفيقك في الغربة ومؤنسك وملهمك وسندك، لا يجب أن تقف علاقتك بالقرآن على مشاهدة المصحف في الزاوية أو على الرف، بل احرص على قراءة ولو صفحة واحدة في اليوم المزدحم، وأكثر من ذلك في وقت السعة بتدبر لا بسرعة، فلا يهم أن تختم بقدر ما يهم أن تطرق الخشية قلبك وتدمع عينك ! وليكن في وقت يناسبك ليلاً أو نهاراً فالمهم أن لا يمضي اليوم دون أن تفتح فيه كتاب الله ولو قليلاً.

4. الالتزام بصيام ثلاثة أيام على الأقل خلال الشهر، وقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه، من قول النبي -عليه الصلاة والسلام- فيما يرويه عن ربه -عز وجل-: (كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ). وروي عن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-: (أَنَّهَا سَأَلَتْ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصُومُ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، فَقُلْتُ لَهَا: مِنْ أَيِّ أَيَّامِ الشَّهْرِ كَانَ يَصُومُ؟ قَالَتْ: لَمْ يَكُنْ يُبَالِي مِنْ أَيِّ أَيَّامِ الشَّهْرِ يَصُومُ) (رواه مسلم).

ومن جرب الصيام وجدته وسيلة عجيبة في صناعة الهمة وقهر النفس الكسولة العنيدة، فالصيام بحد ذاته معسكر تدريب لحسن قيادة النفس وضبطها والتحكم في شهواتها

ورغباتها، ولا شك أن الصائم يتمتع بصفات قيادية تسمح له بتحقيق إنجازات كبيرة في حياته، فمن ضبط نفسه وأحسن قيادتها بالصيام فاز بالكثير من الصفات الرائعة التي ستجعله يحقق النجاح في حياته. يقول ابن القيم في بدائع الفوائد: ”لا تكون الروح الصافية إلا في بدن معتدل، ولا الهمة العالية إلا في نفس نفيسة”، فاحرص على هذه القاعدة الذهبية لتتيسر المسيرة.

5. الالتزام بإخراج صدقة مرة في الأسبوع، وحين نتحدث عن الصدقة فلا نعني بها إخراج المال الكثير بل نعني بها ما تيسر ولو كان شق تمر، فالهدف هو إخراج صدقة تتناسب وإمكانيات الفرد ثم لتعويده خلق الإحسان بالصدقة والكرم، ثم للاستفادة من بركات هذه الصدقة. يقول يحيى بن خالد البرمكي: ”البخل من سوء الظن، وخمول الهمة، وضعف الروية، وسوء الاختيار، ونكران الخيرات”.

6. التزم بذكر 100 مرة الاستغفار بشكل يومي ولا تنزل عن هذا الحد.

7. الالتزام بعمل تطوعي واحد على الأقل خلال الشهر، هذا الأمر يختلف بحسب اختلاف ظروف كل فرد، فقد يكون العمل تقديم مساعدة للأهل والأقارب أو الإقدام على عمل خيري عام، كخدمة للمسجد أو مساعدة لمحتاج أو تصليح ما يحتاج لتصليح والأفكار في ذلك، باب مفتوح، المهم أن تخرج بعمل خيري خلال الشهر الواحد.

8. الالتزام ببر الوالدين والإحسان لمن حولك وتطوير علاقتك للأفضل بالكف عن الخصومات والتوترات خاصة مع أفراد أسرتك، فإن لذلك المردود المضاعف، الأول على نفسك فالهدوء والصفاء يسمح لك بتقديم الأفضل، والثاني لمحيطك، فتكسب قسطاً من السلام مع من حولك فلا تعكر أجواء معسكرك

في الخلافات، وما أجمل غض الطرف والتغاضي عند الاهتمام بالأهداف السامقة، فإنما هو راحة بال وبعد نظر، ولا شك أن تجميد خلافاتك مهما كان الطرف الآخر مزعجاً لك سيكون له بركاته، وتذكر أنك تبني نفسك لتخرج من دائرة الضعف للقوة والقوي يجب أن يحسن التعامل مع من حوله ويؤتي كل ذي حق حقه ويستوعب الخلافات بما لا يؤثر في دينه وعقله.

9. الالتزام بالدعاء في كل وقت استجابة وخاصة وقت الجمعة في آخر ساعة،
اجعلها محطة خلوة ولو لخمس دقائق، انعزل عن الناس جميعاً وقل ربي زدني علماً!، اجعلها محطة تواصل وبث الحزن والشكوى لخالكك، واعلم أن هذه ساعة لا يفرط فيها نجيب، وما توفيقك إلا بالله العلي العظيم! ومن حاز التوفيق من ربه فهو خير له من كل أسباب البشر.

10. الالتزام بالنظافة والنظام، وهذا يعني أن تهتم بنظافتك الشخصية ومظهرك، وأن تعكس صورة المسلم المنير ظاهراً وباطناً، ويدخل في ذلك نظام غرفتك ومكتبك وكل ما تتعامل به، عود نفسك النظام والترتيب، واهتم بالتفاصيل، لأنها مرحلة ضبط في حياتك سيكون لها بركاتها بعد حين!

11. الالتزام بقراءة كتاب مفيد أو الاستماع لدرس مفيد، يجب أن تستمر في صناعة الوعي وتوسيع مداركك ومعرفتك وهذا يعني أن تنتخب كتابات أو مقالات بالقدر الذي تسمح به ظروفك، فتقرأ على أقل تقدير، مقالة واحدة في اليوم، واستمر في ذلك بتحديد وقت لها، فإن لم تجد، فاعلم أن صاحب الهمة يقرأ في طريقه أو في لحظات استراحته وفي كل فرصة يتحین استراق اللحظات لإنجازاته!

12. اهجر تماما كل ما يدخل في سماع الموسيقى والغناء والبرامج التافهة، وإن كنت شديد التعلق بذلك فاستبدله بالأناشيد التربوية الهادفة، وهناك أصوات كثيرة جميلة تغنيك عن التعلق بمخدرات الأغاني والموسيقى. وتأكد أنك سترى خيراً كثيراً وسيوسع فهمك وتزداد نباهتك وتعيش بركات التقوى.

13. اهجر المعاصي والذنوب، من حضور مواقف الفسق أو الاشتراك في أمر محرم أو مشاهدته أو مواطن الفتن، وغيره مما سيحجب عنك رؤية النور، طهر نفسك واستقم كما أمرت وسترى مفعول من ترك شيئاً لله فعوضه خيراً منه! فنور الله لا يهدى لعاصٍ.

14. تخلص تماما من الربا في أموالك، لا تتعامل بها ولا تقبلها فإن فيها محق للبركات وعقبات ولعنات. وكل حلالاً وعش بالحلال.

15. احرص على وقت للرياضة ولو مرتين في الأسبوع كحد أدنى، يقول ابن تيمية رحمه الله: "فإن لفظ الرياضة يستعمل في ثلاثة أنواع:

في رياضة الأبدان بالحركة والمشى، كما يذكر ذلك الأطباء وغيرهم.

وفي رياضة النفوس بالأخلاق الحسنة المعتدلة، والآداب المحمودة.

وفي رياضة الأذهان بمعرفة دقيق العلم، والبحث عن الأمور الغامضة".

وإن احرص على نشاط الجسد يعطي قوة لصاحبه، وفي هذا المستوى سنحرص على حد

أدنى برياضة المشى، أو التمارين المنزلية بمعدل 30 دقيقة، وإن كنت ممن يحب السباحة

وغيرها من رياضات فذلك فضل، وإن في ممارسة الرياضة عزيمة وقوة.

وأما المعاق، فهناك رياضات تناسبه يمكنه القيام بها، فليستعن بالله ولا يعجز.

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام

وبهذا العرض نكون وصلنا للحد الأدنى الذي لا يجب أن تنزل عنه أبداً، 15 التزاماً، في معسكر التدريب للمستوى الأول، معسكر صناعة الحزم.

ومما يجدر بنا الإشارة إليه في هذا المقام أن هناك علاقة عجيبة بين التدريب والاستمرارية، فما نعمل على تحقيقه من المعسكر الأول هو تحديداً ما سيسمح لك بمواصلة المعسكر الثاني والثالث وبدونه لا يمكنك تحقيق شيء في المعسكرين المقبلين حيث سترتفع مستويات الأداء.

وما ستخرج به بعد هذه التجربة هو كما يلي:

- تعويد النفس على الانصياع لأوامرك وحزمك، وقيادتها كما يحب الله ويرضى.
 - تعويد النفس على الاستقاء من معين الإسلام ووصال الله سبحانه مما يحقق لك خفة في السعي وبركة واستزادة وانتعاشاً.
 - الشعور مع كل يوم تستمر فيه على هذه الالتزامات بتغيير يقع في داخلك وفي نفسك وفي تركيبتك، ستصبح أقدر على مواجهة الصعاب وأكثر توكلاً على الله واستعانة به، ستكتشف قدراتك الداخلية المبهرة وستعرف لذة نعيم العبادة، وتلك السكينة التي يمن بها الله على من أقبل عليه، ستصبح الدنيا في نظرك لا تساوي جناح بعوضة! وتذكر في البخاري من حديث أنس رضي الله عنه أنه رضي الله عنه قال في الحديث الذي يرويه عن ربه: ”إذا تقرب العبد إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإذا تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعاً وإذا أتاني يمشي أتيتته هرولة”.
- ولا حول لنا ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

أما للخروج من المعسكر فلن يكون حتى تبلغ نسبة الانضباط 70% كحد أدنى، أي أنك التزمت كأقل تقدير بسبعين بالمئة من جدول معسكر التدريب الأول خلال 3 أشهر، لا يدخل في ذلك حالات المرض أو الظروف الاستثنائية.

أسباب تساعدك على الحزم والانضباط

- الصرامة مع مواعيد الالتزامات، إياك والتسويق أو التأجيل، أذ الواجب في وقته وانه التزامك في لحظته لا تؤخر عمل اليوم إلى الغد ولا عمل اللحظة إلى ما بعد، وبادر للوفاء بالالتزام فوراً وفي مواعده.

- تذكر دائماً أنك في معسكر تدريب واستحضر دائماً أهمية إنهاء هذه المرحلة بأفضل علامة ممكنة.

ضع في ذهنك أن هناك من يسابقك في نفس المعسكر، فلا يسبقكك وتتأخر. قال ابن القيم : “ولله الهمم ما أعجب شأنها وأشد تفاوتها!، فهمة متعلقة بالعرش، وهمة حائمة حول الأنتان والحش”.

تذكر أن ما تقوم به الآن هو حجر الأساس لما هو قادم وأول خطوة في سلم الارتقاء فلا تستهين فتسقط وستدرك قيمة ذلك لاحقاً فلتصبر.

-اعلم أن ما تجنيه من بركات الصدق اليوم هو سر النجاح في حياتك وآخرتك إن من الله عليك بالثبات إلى الموت.

- ابتعد عن الصحبة المرهقة والعلاقات المستنزفة وإياك ووقت ضائع لا تحسن فيه صنعاً. يقول صاحب الظلال: ” تبدو اهتمامات الآخرين صغيرة هزيلة في حس المسلم المشغول بتحقيق وظيفة وجوده الكبرى في هذا الكون عن تلك الصغائر والتفاهات التي يخوض فيها اللاعبون” .

ويقول أيضاً: ” والمسلم ينظر إلى اشتغال أهلها بها (أي الدنيا) وانغماسهم فيها وتعظيمهم لها كأنها أمور كونية عظمى، وهو ينظر إليهم كما ينظر إلى الأطفال المشغولين بعرائس الحلوى والدمى الميثة، يحسبونها شخوصاً، ويقضون أوقاتهم في مناغاتها واللعب معها وبها”.

- كل وقت ضائع لديك اشغله على الأقل في تدبير خلق الله والتفكير في المعاني القيّمة، في مشاهدة ما يجعلك تدرك عظمة الله وروعة خلقه، تعلم معلومة جديدة ودون فائدة ملهمة في دفتر الفوائد، وإياك أن تشغل نفسك بالمعاصي والذنوب كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا!

- قد تكون ممن ابتلي ببعض الأمور السيئة كالتدخين مثلاً أو الإدمان على الأفلام أو الغيبة أو العلاقات المتهمّة، أو غيره مما يتهدد مسيرتك، فهذه ستطلب عناية خاصة بالتدريج، ولن تمنعك من اجتياز معسكرك الأول لكنها ستكون هدفك في المعسكر الثاني إن فشلت في تجاوز إدمانها مبكراً. وكذلك الحال مع كل نقائصك ستخوض معركة المجاهدة في كل حين تسعى فيه للارتقاء، وأنت تتلو قول ربك سبحانه (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) (العنكبوت: 69).

- لا تنشغل بأية أمور جانبية عن هدفك الأول والأخير وهو اجتياز المعسكر بنجاح فإن أسوأ إدارة للمهمات تلك التي تشتت جهودك وطاقاتك على جهات مختلفة، فلا تحقق إنجازاً في أيّ منها، لذلك فالتركيز ضرورة للنجاح.

- سيكون ممتعاً أن تجد صديقاً أو أكثر، يجتاز معك نفس المعسكر فتتنافسان في الله.

- استعن بقضاء حوائجك بالسر والكتمان ولا تكثر الحديث عما تنوي فعله وإن تحقق وتفوقت، بل اشغل نفسك في إنجازه بهدوء ورجاء القبول من الله، وغالباً كثرة الحديث عن المشاريع قبل تحقيقها يبطئ العمل وبعد تحقيقها يجلب الغرور والعجب بالنفس.

- إياك والإصغاء لمن يثني همته أو يحبط عزيمته أو يسخر من إقبالك فأنت ترجو رحمة الله وهو يرجو خسارتك.

- استعن بدفتر تدوّن فيه ملاحظاتك وخواطرك وفوائدك طيلة هذا المعسكر تتركه ذكرى لمن أراد التجربة.

- الانتهاء من هذه المرحلة يعني الثبات حقيقة على هذا المستوى ولن تقبل بالنزول تحته، وستستعين بمجاديف التوبة والاستدراك عند الزلل، ولكن لا للتراجع أبداً فالقادم يستحق وبدون هذه الذخيرة لن تسلك!

- تذكر قول ابن القيم رحمه الله : “أعلى الهمم همة من استعد صاحبها للقاء الحبيب صلى الله عليه وسلم”.

ويقول الشاعر

وإني وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل

ثم إن لم تتمكن من اجتياز هذا المعسكر بمجموع 70% فأعد الكرة لثلاث أشهر أخرى، ثم بعدها لا بد أن تمر على الأقل بـ50% من الالتزامات لنتقل إلى معسكرات التطوير والبذل والسبق والتميز. لنتم بناء الهرم ونصل إلى القمة بإذن الله. وهو عنوان حلقتنا المقبلة “معسكرات البذل والتميز في صناعة الهمة”. إلى ذلك الحين تذكر قول ابن القيم رحمه الله: “فمن علت همته، وخشعت نفسه، اتصف بكلّ خلق جميل. ومن دنت همته، وطغت نفسه، اتصف بكلّ خلق رذيل”.

قد وعيت .. فالزم.

معسكرات البذل والتميز في صناعة الهمة

لأن معسكرات التدريب جعلت للانضباط والصقل والحزم، كانت وسيلتنا في سفر صناعة الهمة.

ولأن تعويد النفوس على الانضباط والالتزام ضرورة أولى قبل المضي قدمًا في التطوير والتميز، كانت بدايتنا مع معسكر التدريب لصناعة الحزم الذي يستمر من 3 إلى 6 أشهر وهي المدة الزمنية الكافية لتعويد الإنسان على برنامج بعينه ليألفه.

ثم بعد التخرج من معسكر التدريب الأول، والخروج برصيد كافي من الحزم والانضباط، آن الأوان للارتقاء درجة أعلى يحدونا في ذلك قول الله تعالى (وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا) (الإسراء: 19)، وقول رسوله صلى الله عليه وسلم: ”من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة” (رواه الترمذي وحسنه).

معسكر التدريب على التطوير والبذل (من 3 إلى 6 أشهر)

ستختلف قائمة الالتزامات في هذا المعسكر من شخص لآخر بحسب تقييمه لنفسه وحاجاته وطبيعة الظروف التي يعيشها وأبواب الخير المتاحة له.

ويعمل هذا المعسكر على تحقيق هدفين مهمين لا ينفصلان:

الأول: تطوير النفس واكتساب الخبرات

ويتوجب لمن دخل مشوار تطوير النفس واكتساب الخبرات تحديد الصفات التي يفتقدها المرء في حياته، مثل: الحلم، الصبر، الصدق، حسن الإنصات، الإيثار، والمساومة، وغيره، والانتها عن الطباع المزعجة والمعطلة لمسيرته كالغضب والكذب والغيبة والتسرع والفوضى والتسويف والانشغال بسفاسف الأمور، وغيره، وهو أمر ممكن بنص الحديث، قال رسول الله ﷺ: ”إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ” (صحيح الجامع).

ولذلك مفاتيح وأدوات ولكل داء دواء، ومن أراد التخلص من طبع الغضب على سبيل المثال، فقد قدم لنا الهدي النبوي تفاصيل مهمة لتخفيف سطوة الغضب والتحكم في النفس، وإن كنت أرى هذا الموضوع، موضوع التطبع بكريم الخصال والتخلص من سيئها، يستحق تأليفاً مستقلاً إلا أننا في هذا المقام نكتفي بالإشارة لأهمية السعي والمجاهدة في سبيل تحقيق ذلك وفق قاعدة البحث والتقصي عن الداء ودوائه.

ثم يمكن لمن حدد نقاط ضعف شخصيته أن يداوئها بالتي هي أحسن ويسأل الله أن يعينه في إصلاح نفسه وألا يكله إلى نفسه طرفة عين.

ولتحقيق هذا الهدف سنرسم قائمة تشمل الطباع التي نسعى للتخلي بها والأخرى التي نرجو التخلص منها، وسنرى مدى التزامنا في تحقيق ذلك خلال شهرين، إنها مرحلة المجاهدة بامتياز.

وبالتزامن مع تقويم الطباع والسلوكيات التي تظهر غالباً في التعاملات، سيكون نافعاً ومفيداً تحديد اختصاص أو مجال يمكن للمرء أن يبدع فيه، وغالباً ما تتفجر العبقريّة في المجالات التي تميل إليها النفس، وأهل مكة أدري بشعابها، قد يكون ميولك في مجال يعينه فابحث عن الأدوات والدورات والكتب والمواقع وكل مصدر للعلم يمكن أن يساعدك في تطوير هذه المهارة، سواء تعلم لغة جديدة أو اختصاص جديد أو خوض غمار علم نافع أو رياضة مفيدة أو حرفة معينة وغيره من أفكار.

وهذه النقطة خاضعة لميولات الأفراد واختياراتهم لذلك لن نلزم أحداً باختصاص معين إنما نترك له الفرصة لاختيار المناسب له، ويحرص على تعلمه وتحقيق تقدم ملموس خلال فترة الثلاثة أشهر التي معنا.

بهذا الشكل سنتخرج من معسكرنا الثاني لصناعة الهممة برصيد سلوكي وعلمي مناسب وقدرة على ترجمة هذه المكتسبات والخبرات إلى عمل صالح.

ولا يقولن أحد لا يناسبني هذا المعسكر فقد تقدم بي العمر وفاتني القطار! فإن المسلم ساعي بالخيرات من المهد إلى اللحد، إلى آخر رمق، وعن ابن معاذ قال: سألت أبا عمرو بن العلاء: حتى متى يحسن بالمرء أن يتعلم؟ فقال: ما دام تحسن به الحياة. وما يدريك ربما كانت نجاتك لحسن نيتك في صناعة الهمة! وإنما الأعمال بالنيات.

الثاني: مرحلة البذل والعطاء

هذه مرحلة تجريبية لتحقيق المشاريع الأولى، وهي مهمة جداً لتذوق لذة الإنجاز التي تعتبر بلا منازع وقود المرحلة المقبلة.

فعليك يا من تنشده الهمة أن تحدد عملاً تقوم به يترجم علو همتك وسمو مقصدك، ولا بد أن يكون هذا العمل في سبيل الله وفي سبيل نهضة هذه الأمة، ولتحديده سنستعين بالمهارات التي اكتسبتها والرصيد العلمي والسلوكي الذي جمعته.

ولتقريب الفكرة أكثر، لنفرض أنك تعلمت التصميم ببرامج التصميم، فالآن مرحلة الأداء والإنجاز، فحدد أهدافك من هذه المعرفة، كقيادة حملة دعوية متخصصة في جانب معين من منظومة الأخلاق، أو الدعوة للإسلام بلغات مختلفة، وغيره من أفكار.

وعلى هذا المثال قس وعدد مشاريع الخير التي يمكنك إنجازها ولا تستصغر مشاريع من قبيل توزيع الطعام على فقراء أو إسعاد قلوب أيتام ومن سعى للخير لن يُعدمه.

الشاهد أن مشروعك الذي ستعمل عليه يجب أن يترجم علو همتك، وإتقانك وإخلاصك وتفانيك، ولا يهتم فيه رأس المال والمصاريف وإنما نسابق هنا على الصدق مع الله، فقد يكون مشروعك بسيطاً كالتطوع في مشاريع دعوة أو توعية أو صناعة الصدقات أو نشر العلم وغيره من قوائم الاقتراحات الكثيرة للمشاريع النافعة، وليس بالضرورة مشاريع تتطلب رؤوس أموال.

ولابد من التنبيه على أن هذا الأمر يخضع أيضاً لخصائص كل فرد، فالمعاق جسدياً لا يمنعه ذلك من العمل بما يناسب حدود طاقته والمرأة تختار ما يناسبها شرعاً وعفة، والرجل يختار من الأعمال ما يقدر عليه، ف (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)، كما لا يجب أن نغفل في

سعيًا عن قاعدة “الأقربون أولى بالمعروف” فقد تكون لها بركاتها العجيبة على من حولك فينتفعون من همتك وتنتشر الفكرة.

هذه المرحلة ستكون مختلفة عن مرحلة التعلم والتطوير لإنها التزام بالعمل والإنتاجية فعليك أن تقدم تقريرًا في آخر الشهر لما أدتته من بذل وعطاء، ليس بهدف المنّ والأذى بل لتقييم نشاطك، وإن كنت تعمل في عدة أبواب ومجالات فلا ضير في ذلك، لأن المهم أن تخرج بعمل صالح يستحق منك المواصلة.

مع العلم أن تمديد معسكر التدريب على التطوير والبذل، ممكن لثلاثة أشهر أخرى بحسب احتياجاتك ومشاريعك.

ثلاثي المدة لتقويم السلوك واكتساب الخبرات، والثلاث الأخير لترجمة النوايا الطيبة إلى ثمار عمل وحسن بلاء.

وبهذا نكون انتهينا من المعسكر الثاني في مرحلة صناعة الهمّة بشخصية مجاهدة ومسابقة، ولو للحد الأدنى من العطاء الذي ننتظره من مسلم ومسلمة.

وعن الحسن قال: “من استطاع منكم أن يكون إمامًا لأهله، إمامًا لحيه، إمامًا لمن وراء ذلك، فإنه ليس شيء يؤخذ عنك إلا كان لك منه نصيب”.

ننتقل بعد ذلك إلى المعسكر الأخير في رحلة صناعة الهمّة، وهو معسكر السبق والتميّز، وهو الأكثر جديّة.

معسكر التدريب المستوى الثالث: (السبق والتميّز)

في هذا المعسكر سننتقل لمرحلة مختلفة تمامًا، لأننا سننتقل إلى مرحلة تحقيق الأهداف التي كنا ننتظر لها على أنها كالجبال وصعبة المنال.

يحدونا في هذا المعسكر المعاني العظيمة المستقاة من حديث رسول الله ﷺ الصحيح: ” إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ “.

يقول الإمام الشافعي - رحمه الله: -

عَلَيَّ ثِيَابٌ لَوْ تُبَاعُ جَمِيعُهَا
بِقَلَسٍ لَكَانَ الْقَلَسُ مِنْهُنَّ أَكْثَرَ
فِيهِنَّ نَفْسٌ لَوْ تُقَاسُ بِبَعْضِهَا
نُفُوسُ الْوَرَى كَانَتْ أَجَلَ وَأَكْبَرَ
مَا ضَرَّ نَصَلَ السِّيفِ إِخْلَاقُ غِمْدِهِ
إِذَا كَانَ عَضْبًا حَيْثُ وَجَّهْتَهُ فَرَى

ويعتمد معسكرنا الأخير، على مرحلتين رئيسيتين:

الأولى: تحقيق التحدي.

الثانية: تحديد الأهداف الكبرى.

1. تحقيق التحدي

أما بداية: فسيحدد كل صانع للهمة هدفًا كان يظهر له من الأمور المستحيلة أو المستعصية وسأضرب هنا مثالًا حيًا، فحفظ كتاب الله قد يظهر لك مشروعًا صعبًا للغاية لكنك بعد ما مررت به من مراحل في معسكرات الهمة لا بد وأنت أصبحت أكثر صلابة وأكثر جسارة على تجاوز التحديات، ولذلك فلديك الآن تحدي الحفظ لتجوزه.

وهذا التحدي أراه ضرورة لأنه يكسب المرء الكثير من القوة والسعادة والبصيرة! وما أعجب الإنجاز الذي يتحول لمصدر قوة فيك!

ثم لنضع مستويات بحسب تفاوت الأشخاص في الهمم والقدرات.

فلك أن تضع التحدي بحفظ كتاب الله كاملاً، أو حفظ سورتي البقرة وآل عمران، أو حفظ سورة من السور الطوال التي تتمنى حفظها.

ثم ضع لذلك مدة زمنية محددة تتفق بشكل معقول ومسؤولياتك وظروفك وقدراتك، ثم انطلق في تحقيق التحدي في أقصر وقت ممكن.

وسيكون التحدي غالبًا متعلقًا بإدارة النفس وقدراتها الخاصة، ولذلك من مقترحات هذا القسم، تحديات كثيرة: كتحديات الصوم، الصدقة، قيام الليل، ختم القرآن تلاوة، كفالة يتيم، سد دين معسور، وغيره من تحديات مع نفسك تثبت فيها أن لا مستحيل في أولوياتك لنيل رضا الله سبحانه وتعالى.

2. تحديد المشاريع الكبرى

بعد ذلك سندخل في المرحلة الأخيرة في مشوار معسكرات التدريب لصناعة الهمة، وهي مرحلة تحديد المشاريع الكبرى.

حدد أهدافك في هذه الحياة، ماذا تريد أن تقدم من خير يكون حجة لك أمام الله واعمل على جمع أسبابه، ومشاريع الخير كثيرة، ومنها ما يحتاج لتمويل ومنها ما يحتاج لصبر وتفاني.

ويمكن أن يكون المشروع لتحصيل الرزق وفي نفس الوقت لخدمة الأمة وتقديم ما ينفع أبنائها.

وباختصار هذا المشروع هو مستقبلك الذي تصنعه بيديك، ويمكن أن تقوم عليه بنفسك أو أن تلتحق بمشاريع قائمة بحد ذاتها وبحاجة لمتطوعين لتستقيم وتزدهر.

ولك الحق في اختيار ما يناسبك، فإما الانطلاق من الصفر والعمل منفردًا أو الاجتماع بفريق مسابق، والتلاحم والتعاون فيما فيه مصلحة الأمة، كمشاريع صناعة الوعي ونصرة المسلمين والعلم والدعوة والإغاثة والاقتصاد وغيره من مشاريع تعمل بروح الفريق في سبيل صلاح الأمة ونهضتها.

ولا يحق للمسلم ولا المسلمة أن يقع في البطالة، لأن ديننا دين بناء وعمل، دين إصلاح في الأرض ونشر للخيرات، نسابق فيه ونزرع الفسيلة وإن قامت الساعة.

قال رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح: ” إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها ”.

وقال عليه الصلاة والسلام: "أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجزن". (رواه مسلم). وقال ﷺ في أول هذا الحديث: "المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلِّ خيرٍ".

بهذا نكون وصلنا لخلاصة معسكرات التدريب لصناعة الهمة، وهي مرحلة تعتمد على جدية صانع الهمة وطموحاته، فتتفاوت الهمة وتتفاوت النتائج ويبقى عند الله الإخلاص هو الخلاص.

وبعد كل رحلة من البذل لا بد من استراحة المقاتل، فهذه الاستراحة ضرورية للتزود والانطلاق بقوة من جديد، ولا يمكن الاستغناء عنها، فهي من صميم طبيعة الإنسان وطبيعة عطاءه، وفي رحلتنا مع صناعة الهمة لتكن استراحتنا مع "حديقة صناعة الهمة"، وهو عنوان حلقتنا المقبلة، فإلى ذلك الحين تدبر قول الله تعالى (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) (القصص: 83).

حديقة صناعة الهمة

بعد معسكرات التدريب على صناعة الهمة كان لابد لنا من استراحة في حديقة الهمة نقتطف منها بعض أجمل المعاني الملهمة لمسيرتنا. وما فتى يكون الحث على علو الهمة حاضرًا بقوة في القرآن والسنة وميراث الصحابة رضي الله عنهم والسلف الصالح وكل من تبعهم بإحسان إلى يومنا هذا وسيبقى هذا الحث محور صناعة الأمم ونهوضها إلى ما شاء الله أن يكون.

علو الهمة في القرآن الكريم

إن القرآن يملأ النفوس بكل ما يعلي الهمة ويعظمها، وبفضل هذا العلو وهذه العظمة في الهمة سبق السابقون الأولون برفع لواء العدل وهدم عروش الظلم، وأناروا الأرض بأنوار الإيمان والعلم، فمن أبي أن يتزود من القرآن الكريم وأعرض عن آياته حُرْم البصيرة والمعية وعلو الهمة والتوفيق جزاءً وفاقاً.

وتتردد معاني علو الهمة بشكل مباشر في الكثير من الآيات أو بشكل غير مباشر في القصص القرآني العظيم، ومن الآيات التي تحث على علو الهمة قوله تعالى (فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۗ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا) (البقرة 148) و (وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) (آل عمران 133).

و (سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ) (الحديد 21) و (وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) (المطففين 26) و (لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ) (الصفات 61).

وقال جل في علاه (أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ) (البقرة 61). وقال سبحانه (وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا) (الإسراء 19).

وقال أيضًا (فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ) (الذاريات 50). وقال تعالى (إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى) (الليل: 4) وقال سبحانه (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) (الحجر 99).

وقال تعالى (وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ) (الحج: 78).

وضرب بعلو الهمة الأمثال فقال تعالى (قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ) (المائدة: 23)، وقال تعالى (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْصِ مِنَ الرُّسُلِ) (الأحقاف: 35).

ونجد علو الهمة حاضرًا بقوة في قصة مؤمن آل فرعون الذي كتم إيمانه، ثم صدع به في حينه غير مبالي بالمجرمين، قال تعالى (وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) (غافر: 28) ونجده في قصة حبيب النجار في سورة يس، قال تعالى (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ) (يس: 20)، وفي قصة داود وجالوت قال تعالى (قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) (البقرة: 249).

كما دلت الآيات على صفات أصحاب الهمة العالية وميادينها المختلفة، منها قوله تعالى (فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ) (التوبة: 108)، وقال جل في علاه (يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ) (النور: 36 - 37).

وقال تعالى (لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا) (النساء: 95).

وقال سبحانه (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ وَعَدُّوا لِلَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَأَخْرِبُوا مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ) (الأنفال: 60).

وقال أيضا (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) (الزمر: 9).

وقال سبحانه (يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) (المجادلة: 11).

وقال جلّ وعلا (لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا). (الحديد: 10).

وجعل علو الهمة صفة أوليائه فقال سبحانه (كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ) (الأنبياء: 90) و(يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ هَا سَابِقُونَ) (المؤمنون: 61)، وقوله سبحانه (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا) (الأحزاب: 23).

وهذا غيض من فيض وإلا فإن كل القرآن يحث على علو الهمة وعظمتها.

علو الهمة في السنة النبوية

لقد استوقفني تعبير جميل مفيد، للشيخ محمد الخضر حسين رحمه الله، سلط فيه الضوء على أهمية القدوة في صناعة عظم الهمة فقال: ”تربى عظم الهمة عن طريق الاقتداء؛ كأن ينشأ الفتى تحت رعاية ولي، أو أستاذ يطمح إلى النهايات من معالي الأمور، أو من طريق تلقين الحكمة، وبيان فضل عظم الهمة، وما يكسب صاحبه من سؤدد وكمال، أو من طريق درس التاريخ، والنظر في سير أعظم الرجال، فإننا لو أخذنا نبحت عن مفاخر أولئك الذين يلهج التاريخ بأسمائهم، لوجدنا معظم مفاخرهم قائمة على هذا الخلق الذي نسميه: (عظم الهمة)”. .

قلت: ولا أعظم قدوة ولا أمثلها في صناعة الهمة من نبي الله محمد ﷺ، نجدها في أحاديثه الشريفة وفي مواقفه العظيمة وطول سكنات وحركات مسيرته المباركة.

لقد تناولت أحاديث نبينا ﷺ المعاني الباهرة لصناعة الهمة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر قوله ﷺ في الحديث الصحيح: ”إذا سألتكم الله فاسألوه الفردوس الأعلى فإنه أوسط ما في الجنة وأعلى ما في الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة.”

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: “والذي نفسي بيده، لولا أن رجلاً من المؤمنين، لا تطيب أنفُسهم أن يتخلفوا عني، ولا أجد ما أحملهم عليه، ما تخلفت عن سرية تغزو في

سبيل الله، والذي نفسي بيده، لوددتُ أن أُقتلَ في سبيلِ اللهِ ثمَّ أحيَا، ثمَّ أُقتلَ ثمَّ أحيَا، ثمَّ أُقتلَ ثمَّ أحيَا، ثمَّ أُقتلَ ” (رواه البخاري).

وقال ففته النفس: “من سأل الله الشهادة بصدق، بلغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه”، (رواه مسلم وغيره).

وروى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: ”يا أبا سعيد، من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً وجبت له الجنة. فعجب لها أبو سعيد، فقال: أعدها علي يا رسول الله، ففعل ثم قال، وأخرى يُرفع بها العبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض!! قال: وما هي يا رسول الله؟ قال الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله“.

وروى الترمذي وحسنه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: “من خاف أذبح وممن أذبح بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة”.

وقال في الحديث الذي رواه أحمد وغيره: ”سبق درهم مائة ألف، قالوا يا رسول الله كيف يسبق درهم مائة ألف؟ قال: رجل كان له درهمان فأخذ أحدهما فتصدق به وآخر له مال كثير فأخذ من عرضها مائة ألف كثير“.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ”إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم. قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين“.

كما روى الطبراني بسند صحيح من حديث الحسين بن علي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: “إن الله تعالى يحب معالي الأمور وأشرافها، ويكره سفاسفها”.

وقال ﷺ: ”المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان” (رواه مسلم).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، وَيُحِبُّ مَعَالِي الْأَخْلَاقِ، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا".

وعن حكيم بن حزام رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أَيْدِي الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ أَيْدِي السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غَنَى، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يَعْفِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يَغْنَهُ اللَّهُ".

وروى الترمذي وأبو داود واللفظ له، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ، كَمَا كُنْتَ تُرْتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنَزَلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرُؤُهَا".

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ" (رواه الترمذي).

كما بين صلى الله عليه وسلم أن علو الهمة مطلب عزيز فقد روى البخاري، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "إِنَّمَا النَّاسُ كَالْإِبِلِ الْمِائَةِ، لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً"، ولفظ مسلم: "بِحَدُونِ النَّاسِ كِابِلِ مِائَةٍ، لَا يَجِدُ الرَّجُلُ فِيهَا رَاحِلَةً".

وامتدح النبي صلى الله عليه وسلم قوماً لعلو همتهم قد أخرج مسلم في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لو كان الإيمان عند الثريا لتناوله رجال من فارس".

وروى أحمد والبخاري في "الأدب المفرد" وعبد بن حميد في "مسنده" والبخاري في "مسنده" عن أنس بن مالك قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا". ولفظ أحمد: "إِنْ قَامَتْ عَلَى أَحَدِكُمْ الْقِيَامَةُ، وَفِي يَدِهِ فَسِيلَةٌ فَلْيَغْرِسْهَا".

فأي حديث عن الهمة بعد هذا الحديث!

ومع مكانته ﷺ واصطفاء الله سبحانه وتعالى له، إلا أنه ﷺ لم يكمل ولم يمل من المسابقة، إنه ﷺ قدوة لا نظير لها في الهمّة، فعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: ” كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي حتى ترم، أو تنتفخ، قدماه، فيقال له، فيقول: “أفلا أكون عبداً شكوراً” (رواه البخاري).

مدحتك آيات الكتاب فما عسى يثني على عليك نظم مديحي
وإذا كتاب الله أثني مُفصِحاً كان القصور قصار كل فصيح

وقيل فيه ﷺ:

أرى كل مدح للنبي مقصراً
وإن سطرت كل البرية أسطراً
فما أحدٌ يحصي فضائل أحمدٍ
وإن بالغ المثني عليه وأكثرها
إذا الله أثني بالذي هو أهله كفاه
بذا فضلاً من الله أكبرا
وفي سورة الأحزاب صلى بنفسه عليه
فما مقدار ما تمدح الورى (الخلق)

علو الهمّة مع الأنبياء والمرسلين

ولأنهم خيرة خلق الله خصّهم سبحانه بتبليغ رسالته والدعوة لعبادته وحده لا شريك له، كان علو همّتهم عليهم السلام مضرب الأمثال ومنبع الإلهام، نجده في تفاصيل قصصهم العظيمة، قال الله سبحانه وتعالى يثني عليهم (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ افْتَدَاهُ قُلْ لَأَسْأَلَنَّكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) (الأنعام 90).

وقال سبحانه وتعالى: (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعُرْمِ مِنَ الرُّسُلِ) (الأحقاف:35)، وقال سبحانه (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِي إِنَّهُ أَوَّابٌ) (ص:17). وقال تعالى (وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ * وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ) (ص:45-48).

وفي سورة مريم قال تعالى (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى ۚ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (51) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (52) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (53) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (54) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (55) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (56) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (57) أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (58)).

وقال تعالى (يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا) (مريم:12).

وقال سبحانه (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ) (العنكبوت:14). (قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا) (نوح:5-9).

وقال تعالى (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا) (الكهف:60). وقال سبحانه (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى) (النجم:37).

ولا يتسع المقام لعرض جميع الآيات التي تشير لعلو همة الأنبياء والمرسلين ولكن الحريص على حياة القرآن سيجدها عند كل قصة نبي عرضها لنا القرآن بأساليبه الرائعة.

علو الهمة في أقوال الصحابة رضي الله عنهم

إنهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين قال عنهم صلى الله عليه وسلم كما روي في الصحيحين وغيرهما: “لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه”. وروي الإمام أحمد في المسند عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم - قال: “دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد ذهبًا أو مثل الجبال ذهبًا ما بلغت أعمالهم”. صححه الأرنؤوط.

لقد قدم الأنصار والمهاجرون رضي الله عنهم نماذج مبهرة في علو الهمة، لا يسعنا عرض جميع أقوالهم وآثارهم في هذا المقام لكننا نستزيد ببعضها لعل الذكرى تنفع المؤمنين. روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: “لا تصغرن همتكم؛ فإني لم أر أقدت عن المكرمات من صغر الهمة”¹⁸.

وروي عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قوله:

إذا أظمأتك أكفُ الرجال
كفتك القناعة شبعًا وريا
فكن رجلاً رجُلُه في الثرى
وهامة همتُه في الثريا

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه أيضا: “ميدانكم نفوسكم؛ فإن انتصرتم عليها، كنتم على غيرها أقدر، وإن خذلتكم فيها، كنتم على غيرها أعجز، فجزبوا معها الكفاح أولاً”¹⁹.

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: “والله الذي لا إله غيره، ما يضر عبداً يصبح على الإسلام ويمسي عليه ما أصابه من الدنيا”²⁰.

(18) (أدب الدنيا والدين) للماوردي (ص319).

(19) مفتاح الأفكار، للتأهب لدار القرار.

(20) الزهد؛ لأحمد بن حنبل.

وذاك أبو بكر الصديق رضي الله عنه كان طموحه أن يدخل الجنة من أبوابها الثمانية.
قال ابن رجب في اللطائف: قال بكر المزني: ما سبقهم أبو بكر بكثرة صيام، ولا صلاة،
ولكن بشيء وقر في صدره.
فتأمل بشيء وقر في قلبه!

قال بعض العلماء المتقدمين: الذي وقر في صدره هو حب الله، والنصيحة لخلقه.
وهو الصديق القائل رضي الله عنه: ”والله ما نمت فحلمت، ولا توهمت فسهوت وإني على السبيل
ما زغت“.

وذاك عكاشة بن محصن رضي الله عنه يطلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو الله له ليكون مع من يدخلون
الجنة بغير حساب.

وربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه لم تكن له غاية دون مرافقة النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة.
وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه: ”عليكم بكل أمر مزلفة مهلكة“ أي عليكم بجسام الأمور
دون خسائسها.

وقال معاوية رضي الله عنه: ”من طلب عظيمًا خاطر بعظيمته“.

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: ”إن العلم والإيمان مكانهما، من ابتغاهما وجدتهما“.

وعن سعد رضي الله عنه قال: ”رأيت أخي عمير بن أبي وقاص قبل أن يعرضنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم
بدر يتوارى، فقلت: ما لك يا أخي؟ قال: إني أخاف أن يراني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيستصغرنى
فيردني، وأنا أحب الخروج لعل الله أن يرزقني الشهادة، قال: فعرض على رسول الله صلى
الله عليه وسلم فردّه، فبكى فأجازه، فكان سعد رضي الله عنه يقول: فكنت أعقد حمائل سيفه من
صغره، فقتل وهو ابن ست عشرة سنة“²¹.

وقال سعيد بن العاص رضي الله عنه: ”ما شامت رجلاً منذ كنت رجلاً؛ لأني لا أشاتم إلا أحد
رجلين: إمامًا كريمًا، فأنا أحق من احتمله، وإمامًا لئيمًا، فأنا أولى من رفع نفسه عنه“²².

واجتمع عبد الله بن عمر وعروة بن الزبير ومصعب بن الزبير وعبد الملك بن مروان بفناء
الكعبة، فقال لهم مصعب: تمنوا، فقالوا: ابدأ أنت، فقال: ولاية العراق وتزوج سكينه بنت

(21) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى.

(22) التذكرة الحمدونية لابن حمدون 18/2

الحسين وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله، فنال ذلك وأصدق كل واحدة خمسمائة ألف درهم وجهازها بمثلها.

وتمنى عروة بن الزبير الفقه وأن يحمل عنه الحديث، فنال ذلك، وتمنى عبد الملك الخليفة، فناها، وتمنى عبد الله بن عمر الجنة. ونحسبه قد نالها.

روى قتادة عن أنس رضي الله عنه قال: ” افتخرت الأوس والخزرج، فقالت الأوس: منا غسل الملائكة: حنظلة، ومنا الذي حمته الدبر: عاصم بن ثابت ومنا الذي اهتز لموته عرش الرحمن: سعد بن معاذ، ومنا من أجزت شهادته بشهادة رجلين: خزيمه بن ثابت. فقال الخزرجيون: منا أربعة نفر قرؤوا القرآن، على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يقرأ غيرهم: زيد بن ثابت، وأبو زيد، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل. يعني بقوله: لم يقرأه أحد من الأوس، وأما من غيرهم فقد قرأه علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وعبد الله بن مسعود، في قول، وسالم مولى أبي حذيفة وعبد الله بن عمرو بن العاص وغيرهم، ذكر هذا أبو عمر ²³.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ”ليأتين على الناس زمان يكون همة أحدهم فيه بطنه ودينه هواه”.

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال فأنطق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى سبوا المشركين إلى بدر وجاء المشركون فقال رسول الله لي الله عليه وسلم: ” لا يقدم من أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه”. فدنا المشركون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ” قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض”. قال يقول عمير بن الحمام الأنصاري يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض قال « نعم ». قال بخ بخ. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ” ما يملك على قولك بخ بخ”. قال لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال ”فإنك من أهلها”، فأخرج تمرات من قرنيه فجعل يأكل منهن ثم قال لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها حياة طويلة - قال - فرمى بما كان معه من التمر. ثم قاتلهم حتى قتل.

(23) رواه أبو داود والنسائي والترمذي.

وكيف لا تكون أقوال الصحابة رضي الله عنهم تنبض همة واستعلاءً بالإيمان ومسارعة لميادين الأفعال وقد تربوا في مدرسة النبوة وأدركوا فضل المسابقة في سبيل الله وعظيم الأجر الذي ينتظرهم في دار الخلود، فكانت سيرهم جليلة في السعي والبذل وانتشروا في الأمصار والثغور فقتلوا كل منهم نجبه في سبق. ولم يُدفن في مكة والمدينة من المئة ألف صحابي الذين شهدوا حجة الوداع مع النبي صلى الله عليه وسلم إلا بضع آلاف فقط أما أغلب الصحابة فقد دفنوا في مشارق الأرض ومغاربها.

ولا يزال هدي النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام سبيل الخلاص لهذه الأمة فعن العرياض بن سارية، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: “إنه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة”.

سلام من الرحمن نحو جنابهم فإن سلامي لا يليق ببابهم

وقيل فيهم رضي الله عنهم:

أولئك قوم شجَّح الله فخرهم
فما فوقه فخر وإن عظم الفخر

صناعة الهمة في أقوال السلف الصالح والآثار

إنه لمذهل بحق حجم الروائع التي كتبت في موضوع علو الهمة في ميراث المسلمين، وفي ذلك دلالة على أهميتها وشغلها الحيز الأكبر من اهتمامهم وعنايتهم بكل أسباب القوة لنهضة الإنسان والأمة، ولن نتمكن من عرضها كلها لكننا سنقتطف بعضها للسلف الصالح ولأئمة أهل السنة وللصالحين فإنما هي خلاصات استمدت نورها من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وصاغها كل منهم بأسلوبه ببصيرة وحكمة.

قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الخليفة العادل: “إن لي نفساً تواقه، وما حققت شيئاً إلا تاقت لما هو أعلى منه؛ تاقت نفسي إلى الزواج من ابنة عمي فاطمة بنت عبد الملك

فتزوجتها. ثم تآقت نفسي إلى الإمارة فوليتها، وتآقت نفسي إلى الخلافة فنلتها، والآن تآقت نفسي إلى الجنة. فأرجو أن أكون من أهلها”.

وقال الحسن رحمه الله: “من نافسك في دينك؛ فنافسه ومن نافسك في دنياه؛ فألقها في نحره.”

وقد قيل همة المؤمن أبلغ من عمله.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: “قيمة كل امرئ ما يحسن، وقيمة كل امرئ ما يطلب” بقصد همته.

وأستسمحكم أن أطيل قليلاً في اقتباسات ابن القيم رحمه الله، فقد كان فارس الهمة وصانعها وملهمها، حيث قال في كتابه “الفوائد”: “إذا طلع نجمُ الهمة في ليل البطالة، وردفه قمر العزيمة، أشرفت أرض القلب بنور ربها”.

وقال رحمه الله: “وقد عرفت بالدليل أن الهمة مولودة مع الآدمي، وإنما تقصر بعض الهمم في بعض الأوقات فإذا حثت سارت ومتى رأيت في نفسك عجزاً فسَلِ المنعم أو كسلاً فالجأ إلى الموفق، فلن تنال خيراً إلا بطاعته، ولن يفوتك خير إلا بمعصيته”.

وقال رحمه الله: “فالنفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها وأفضلها، وأحمدها عاقبة. والنفوس الدنيئة تحوم حول الدنئات، وتقع عليها كما يقع الذباب على الأقدار؛ فالنفوس العلية لا ترضى بالظلم، ولا بالفواحش، ولا بالسرقة، ولا بالخيانة؛ لأنها أكبر من ذلك، والنفوس الحقيرة بالضد من ذلك” - وقال: “فمن علت همته، وخشعت نفسه - اتصف بكل جميل، ومن دنت همته، وطغت نفسه - اتصف بكل خلق رذيل”.

وقال: “بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْفَائِزِينَ جَبَلُ الْهَوَى، نَزَلُوا بَيْنَ يَدَيْهِ وَنَزَلَتْ حَلْفَهُ، فَاطُوا فَضْلَ مَنْزِلِ تَلْحَقَ بِالْقَوْمِ”.

وقال: “إنما تفاوت القوم بالهمم لا بالصور”.

وقال: “أَلْفَتْ عَجَزَ الْعَادَةِ؛ فَلَوْ عَلَتْ بِكَ هِمَّتُكَ رَبَّ الْمَعَالِي - لاحت لك أنوار العزائم”.

وقال: “من تلمح حلاوة العافية هانت عليه مرارة الصبر”.

وقال: “لو خرج عقلك من سلطان هواك عادت الدولة إليه”.

وقال: “القواطع محنٌ يتبين بها الصادق من الكاذب، فإذا خضتها انقلبت أعاوناً توصلك إلى المقصود”.

وهو القائل: “لقاحُ الهمةِ العالية؛ النيةُ الصَّحيحة.. فإذا اجتمعَا بلغَ العبدُ غايةَ المرادِ.”! وفي الواقع فإن ابن القيم رحمه الله كتب في هذا الباب الشيء الكثير، وأسهب في علو الهمة وعظمتها وأسرار صناعتها ما نحتاج من كوننا لا نعرض هنا إلا بعض قبساته، ففي ميراثه رحمه الله الخير الأوفى.

وكذلك كان ابن الجوزي رحمه الله، حيث قال في هذا الباب: “من علامة كمال العقل علو الهمة، والراضي بالدون دي”.

وقال أيضاً: “ولولا ما عانى يوسف عليه السلام ما قيل له: ”أيها الصديق”.

ومن درره في صناعة الهمة رحمه الله: “إن هممت فبادر وإن عزمت فتأبر واعلم أنه لا يدرك المفاخر من رضي بالصف الآخر..

وقال ابن الجوزي رحمه الله: “إن الخيل إذا شارفت نهاية المضمار، بذلت قُصارى جُهدِها لتفوز بالسباق، فلا تكن الخيلُ أظنَّ منك، وإنما الأعمال بالخواتيم، فإنك إذا لم تُحسِّن الاستقبال، لعلك تُحسِن الوداع”!

وهو القائل: “تلمَّح فجر الأجر يهن ظلام التكليف”.

وقال أيضاً في صيد الخاطر: “لقد جلست يوماً فرأيت حولي أكثر من عشرة آلاف، ما فيهم إلا من قد رقَّ قلبه، أو دمعت عينه، فقلت لنفسى: كيف بك إن نجوا وهلكت؟!، فصحت بلسان وجدي:

إلهي وسيدي، إن قضيت عليّ بالعذاب غداً فلا تعلمهم بعذابي؛ صيانة لكرمك لا لأجلي؛ لئلا يقولوا: عدب من دلّ عليه”.

وقال رحمه الله: “من أعمل فكره الصافي، دله على طلب أشرف المقامات، ونهاه عن الرضى بالنقص في كل حال”.

وقال رحمه الله في “لفتة الكبد إلي نصيحة الولد”: “وما تقف همة إلا لخساستها، وإلا فمتى علت الهمة فلا تقنع بالدون”.

ومن جميل مشاهد الهمة لدى النساء ما ذكره الشيخ مشهور آل سلمان حيث قال: “وقفت على مخطوطة كتاب (الصحيح) للجوهري، فكانت ناسخته امرأة، وكتبت عليه: ”من وجد في النسخ نقصا فليعذرني، فإنما كنت أكتب بيمينني وأهز ولدي بشمالي!“²⁴.

ونقل ابن قتيبة عن بعض كتب الحكمة: ”ذو الهمة إن حُطَّ، فففسه تأبى إلا عُلوًّا، كالشعلة من النار يُصَوَّبُها صاحبها، وتأبى إلا ارتفاعا“ .
ومما ذكره عبيد بن زياد: قال: “كان لي خال يقول لي يا زياد همَّ فإن الهمة نصف المروءة“.

وقال الإمام مالك رحمه الله: “وعليك بمعالي الأمور وكرائمها، واتق رذائلها وما سف منها؛ فإن الله تعالى يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها“.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: “يُروى عن أبحر بن جابر العجلي أنه قال -فيما أوصى به ابنه حجارًا-: إياك والسامة في طلب الأمور فتقذفك الرجال خلف أعقابها“.

وقال أحد الصالحين: ”همتك فاحفظها فمن صلحت همته وصدق فيها صلح له ما وراء ذلك من العمل“.

وقال ابن حزم رحمه الله: “لا تبذل نفسك إلا فيما هو أعلى منها، وليس ذلك إلا في ذات الله عز وجل في دعاء إلى حقِّ، وفي حماية الحريم، وفي دفع هوان لم يوجبه عليك خالقك تعالى، وفي نصر مظلوم، وباذل نفسه في عرض دنيا، كبائع الياقوت بالحصى“.

وقال الإمام عيسى بن موسى: ”مكثت ثلاثين سنة أشتهي أن أشارك العامة في أكل هريسة السوق فلا أقدر على ذلك، لأجل البكور إلى سماع الحديث“.

وقال علي بن الحسن بن شقيق: ”قمت لأخرج مع ابن المبارك في ليلة باردة من المسجد، فذاكرني عند الباب بحديث أو ذاكرته، فما زلنا نتذاكر حتى جاء المؤذن للصبح“ .

وقال مُجَدُّ بن علي السلمي: ”قمت ليلة سحرًا لآخذ النوبة على ابن الأخرم، فوجدت قد سبقني ثلاثون قارئًا، ولم تدركني النوبة إلى العصر“.

وقال وهيب بن الورد : إن استطعت أن لا يسبقك إلى الله أحد فافعل .

(²⁴) الزهد لابن المبارك 217.

وقال مُجَّد بن عثمان التركستاني: "ما بلغني عن أحد من الناس أنه تعبد عبادة إلا تعبدت نظيرها وزدت عليه".

وقيل في الأثر: لو تعلقتم همة أحدكم بالثريا لناها.

وقال الإمام ابن عقيل رحمه الله: "إنه لا يحلُّ لي أن أضَيِّع ساعة من عمري، حتى إذا تعطلَّ لساني عن مذاكرة ومناظرة وبصري عن مطالعة؛ أعملت فكري في حال راحتي".

ومن جميل ما ذكره إبراهيم السكران في مقالته جسر التعب: "لما كان الإمام مسلم بن الحجاج يصنف كتابه "الصحيح" الذي هو أحد مفاخر هذه الأمة، وبلغ -رحمه الله- أحاديث الصلاة، وبلغ منها تحديدًا أحاديث مواقيت الصلاة، جاء لحديث عبد الله بن عمرو المشهور في تحديد أوقات الصلاة، وكان هذا الحديث جاء بروايات متفرعة متعددة، فرتبها ترتيبًا حسنًا استوعب اختلاف الطرق فيها عن قتادة عن أبي أيوب عن عبد الله بن عمرو، فلما رأى رحمه الله صنيعه هذا أراد أن يوصل رسالة لقارئ كتابه أن هذه النتيجة الحديثية التي توصل إليها في حديث عبد الله بن عمرو لم تأت إلا بالعناء المضني، فأخرج بعدها أثرًا عن الإمام الحافظ يحيى بن أبي كثير (ت 129هـ) يقول فيه: حدثنا يحيى بن يحيى التميمي؟ قال أخبرنا عبد الله بن يحيى بن أبي كثير، قال: سمعت أبي يقول: "لا يُستطاع العلم براحة الجسم" (صحيح مسلم: 612). وموطن العجب هاهنا أن الإمام مسلم لا يخرج في كتابه إلا أحاديث مرفوعة عن النبي ﷺ، هذا شرطه في الكتاب من حيث الأصل، فكيف روى هذا الأثر عن إمام من صغار التابعين، يتحدث فيه عن التعب في العلم، ووضعه بين أحاديث الصلاة؟ يقول القاضي عياض (ت 544هـ) في كتابه إكمال المعلم: "فكثيرٌ من يسأل عن ذكره هذا الخبر في هذا الموضوع وليس منه، ولا هو من حديث النبي ﷺ ولا من شرط الكتاب، فقال لنا بعض شيوخنا: إن مسلمًا رحمه الله أعجبه ما ذكر في الباب، وعرف مقدار ما تعب في تحصيله وجمعه من ذلك، فأدخل بينها هذا الخبر تنبيهًا على هذا، وأنه لم يحصّل ما ذكر إلا بعد مشقة وتعب في الطلب، وهو بيّن، والله أعلم" 25.

(25) القاضي عياض، إكمال المعلم: 577/2.

ومن روائع مقولات الإمام الشافعي رحمه الله:

ما حكَ جلدك مثل ظفرك
فَتَوَلَّ أَنْتَ جَمِيعَ أَمْرِكَ

وقال رحمه الله:

إني رأيت وقوف الماء يفسده
إن ساح طاب وإن لم يجر لم يطب
والأسد لولا فراق الغاب ما افتترست
والسهم لولا فراق القوس لم يصب

وقال حكيم: لما كنت حدثا كنت أتصور أن الرعد هو الذي يقتل الناس فلما كبرت علمت أن البرق هو الذي يقتل الناس، ولهذا عزمت من ذلك الحين على أن أقل من الإرعاد وأكثر من الإبراق.

ولم أر أسبق همة ولا أروع نجابة من قول أحد الصالحين، إني لاعمل في هذه الدنيا حتى إذا ما لقيت ربي قلت: والله لو أرجعتني إليها ما عملت أكثر مما عملت فيها حين كنت فيها. وهذا يدل على أنه بذل قصارى جهده ولم يقصر في المسابقة، فأى همة هذه وأي نجابة!
وفي هذا كفاية وبركة.

علو الهمة في نظم الشعراء

ولأنها مبلغ عظيم ينشده العقلاء فقد تغنى بها الشعراء وبمعانيها.

قال أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله:

قد جاء شغل شاغل
وعدلت عن طرق السلامة
ذهب الفراغ فلا فرا
غ لنا إلى يوم القيامة

وقام الإمام ابن دقيق العيد:

الجسم يذيه حقوق الخدمة
والقلب عذابه علو الهمة
والعمر بذاك ينقضي في تعب
والراحة ماتت فعليها الرحمة

وقال أبو الطيب المتنبي:

لهم همم لا منتهى لكبارها
وهمته الصغرى أجل من الدهر

وقال أيضا:

وما نيل المطالب بالتمني
ولكن تؤخذ الدنيا غلاباً

وقال أيضا:

رب همة أحييت أمة

وهو القائل:

ولم أر في عيوب الناس عيباً
كنقص القادرين على التمام

والقائل:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها
وتصغر في عين العظيم العظائم

وقال مسابق:

لي همّة كالجمر بين أضالعي
ترنو لتبلغ في المكارم مبلغا
“تَرْيَاقُ” هَيَّا سِرَّ بَرْكِيكَ آمِلاً
كادت شمسُ مواهبٍ أن تَبْرُغا
إني رفيقك في المسير ورايتي
لا أبرحن السعي “حتى أبلُغا”

ولله در القائل:

إذا لم أجد في بلدة ما أريده
فعندي لأخرى عزمة وركاب

وفي نفس المعنى قال شاعر:

سأضرب في طول البلاد وعرضها
أنال مرادي أو أموت غريباً

فإن تلفت نفسي فله درها
وإن سلمت كان الرجوع قريبا

ولا يفوتنا البيت الشهير لأبي تمام:

بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها
تنال إلا على جسر من التعب

وقال عنتره:

دعوني أجدُّ في طلب العلا
فأدرك سؤلي أو أموت فأعذر

وقال:

إن لي همّة أشد من الصخر
وأقوى من راسيات الجبال

وقال أحمد شوقي:

الطير يطير بجناحيه، والمرء يطير بجمته.

وقال أيضا:

والخلد في الدنيا وليس بهيّن
عليا المراتب لم تُتخَّ لجبان
المجد والشرف الرفيع صحيفة
جعلت لها الأخلاق كالعنوان

وقال الحافظ إبراهيم:

سَمَّيْ وَكَافِحْ فِي الْحَيَاةِ فَهَذِهِ
دُنْيَاكَ دَائِرٌ تَنَاحِرُ وَكَفَاحٌ
وَأَهْلٌ مَعَ النَّهَالِ مِنْ عَذْبِ الْحَيَاةِ
فَإِذَا رَقَا فَامْتَحْ مَعَ الْمَتَّاحِ
وَإِذَا أَلْحَ عَلَيْكَ خَطْبٌ لَا تَهْنُ
وَاضْرِبْ عَلَى الْإِلْحَاحِ بِالْإِلْحَاحِ
وقال إبراهيم طوقان:

كفكف دموعك.. ليس
ينفعك البكاء ولا العويل
وانحض ولا تشكُ الزمان
فما شكا إلا الكسول
واسلك بهمتكَ السبيل
ولا تقل كيف السبيل
ما ضل ذو أمل سعى
يوماً وحكمته الدليل
كلاً ولا خاب امرؤ
يوماً ومقصده نبيل

وقال الثعالبي: ومن أحسن ما قيل في علو الهممة قول ابن طباطبا العلوي:

له هممة إن قست فرط علوها
حسبت الثرياً في قرار قليب

وقال ابن عبد القوي:

فلا تشتغل إلا بما يكسب العلا

ولا ترضَ للنفس النفيسة بالردى

وقال آخر:

قات للصقر وهو في الجو عالٍ
اهبط الأرض فالهواء جديب
قال لي الصقر : في جناحي وعزمي
وعنان السماء مرعى خصيب
وقال علي بن حمد الكاتب البُستي:
وإذا مضى يوم ولم أصنع يدًا
ولم أقتبس علما فما هو من عمري

وتأمل قول الشاعر:

ومن يصطبر للعلم يظفر بنيله
ومن يخطب الحسنة يصير على البذل
ومن لم يذل النفس في طلب العلى
يسيرا يعيش دهرا طويلا أبا ذل
وقال سيد قطب:

أخي فامض لا تلتف للوراء
طريقك قد خضبتة الدماء
ولا تلتفت ها هنا أو هناك
ولا تتطلع لغير السماء

وقال آخر:

إن يَسْلُب القوم العِدا مُدَّ

كبي وئسَلمني الجموعُ
فالقلب بين ضُلوَعِه
لم تُسَلِم القلبَ الضلوَعُ
وصدق من قال:
أحزان قلبي لا تزول
حتى أبشر بالقبول
وأرى كتابي باليمين
وئسَّرَ عيني بالرسول

ولله در القائل:

هذا زمان لا توَسُّط عنده
يبغي المغامر عاليًا وجليلا
كن سابقًا فيه أو ابق بمعزلٍ
ليس التوسط للنبوغ سبيلا

وتأمل قول النابغة الجعدي بقوله:

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا
وإنا لنبغي فوق ذلك مظهرًا

وشاعر آخر نظم:

أعادلتي على إتعاب نفسي
ورعبي في الدجى روض السهادِ
إذا شام الفتى برق المعالي
فأهون فائت طيب الرقادِ

وقول الشاعر:

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها
من بعدهم فبالسن البنيان

ومن شعر النعيمي المشهور له:

إذا أظمأتك أكف اللئام
كفتك القناعة شبعاً ورياً
فكن رجلاً رجله في الثرى
وهامة همته في الثريا
أبياً لنائل ذي ثروة
تراه بما في يديه أيياً
فإن إراقة ماء الحياة
دون إراقة ماء المحيا

وقال آخر:

يا أمتي أين الهمم
أين التسابق للقمم
قد أحرقني لظى الحمم
ما عاد يطربني الغناء
ولا الكلام عن القدم
أقسمت أن يا أمتي
أن تعتلين عرش الأمم

فيا:

أخي ستبید جيوش الظلام
ويشرق في الكون فجر جديد

فأطلق لروحك إشراقها
تَرَّ الفجر يرمقنا من بعيد

ويا أيها المسابقون:

دقات قلب المرء قائلة
له إن الحياة دقائق وثواني
فارفع لنفسك بعد موتك
ذكرها فالذكر للإنسان عمر ثاني

علو الهمة عند المعاصرين

لا بد أن نعرِّج على بعض الكتابات الملهمة في العصر الحديث.
يقول مُجَّد الخضر حسين رحمه الله في فضل عِظَم الهمة: ”يكفيك فيما تجني من ثمرة العلم الصحيح أن يرفع همَّك عمَّا فُتِنَ به الجاهلون من زهرة هذه الحياة”.
ومن درره: ”العمل على إنقاذ النفوس من وادي الغواية، والإقبال بها على مطالع السعادة: مسلكٌ وعزٌّ لا يمرُّ فيه على استقامة إلا من بلغ في صناعة البيان أمداً قاصياً”.
و”الرجل الحازم من يحرص على ألا يذهب شيء من وقته في غير جدوى”،
و”لا خير في أمة يكون شطرها فاقداً عزّة النفس وسموّ الهمة!”،
و”نجاح كل عمل على قدر ما يقارنه من طيب السريرة، وحسن القصد”، و”البراعة في كل فنّ تكون على حسب الأخذ بمبادئه، والدربة في مسالكه”.
وقال أيضاً: ”اربط نفسك باعتقاد أنك تعمل لمن يشبُّ أو ينشأ بعد موتك، حتى لا يكون في صدرك حرج؛ إذ تكون بضاعتك بين أهل عصرِكَ كاسدة”.

وقال: ”فِلْدَعُوَّةٌ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْفَضْلُ الْأَكْبَرُ فِي رَفْعِ النَّفُوسِ مِنْ حَضِيضِ الشَّرِكِ إِلَى سَمَاءِ التَّوْحِيدِ الْخَالِصِ“ ، وقال: ”كَبُرَ الْهَمَّةِ يَصِيرُ الْعَالَمُ الْأَمِينُ عُوْدًا مَرًّا وَمَكْسِرًا صُلْبًا يَقِفُ لِلْمُبْتَدِعِينَ الْمَرْجِفِينَ مَوْقِفَ الشَّجِيِّ بَيْنَ الْحَلْقِ وَالْوَرِيدِ“ .

ومما ساقه من جميل الأمثلة عن الهمة قوله: ”أراد أبو الوليد الباجي - حين كان يناظر أبا مُحَمَّد بن حزم - أن يثبت لهمة فضلًا عن همة ابن حزم، فقال له: أنا أعظم منك همة في طلب العلم؛ لأنك طلبته وأنت تعان عليه، تسهر بمشكاة الذهب، وطلبته وأنا أسهر بقنديل بائر السوق. وأجابه ابن حزم قائلاً: أنت طلبت العلم في حال فاقة، رجاء تبديلها بمثل حالي، وأنا طلبته في حين ما تعلمه وما ذكرته، لا أرجو إلا علوَّ القدر العلمي في الدنيا والآخرة“ .

وقال أ.د. خلدون الأحذب: ”وإذا نظرنا إلى أولئك الذين استفادوا من لحظات أعمارهم، وكان من نتاجهم ما يعجب ويدهش، نجدهم لا يصحبون إلا المجدين العاملين والناجحين الأذكياء، الذين يحرصون على أوقاتهم حرصهم على حياتهم لأن الزمن هو الحياة“ .

ومن مشاهد الهمة في حياة العلامة محمود شاكر رحمه الله، شهادة من يعرفه حيث قال: ”كنت أستمع لبعض أشرطة الشيخ صالح وزير الشؤون الإسلامية فطراً الحديث عن الهمة فقال مامعناه : كنت عند الشيخ محمود شاكر فسألته ليدلني على كتاب في اللغة أستفيد منه ؟ فقال لي : كتاب لسان العرب!

فقلت : لسان العرب عشرين مجلد كيف أقرؤه؟؟

فقال : إذا ابحت لك عن وظيفة أو عمل تشغل به نفسك أنت لا تصلح للعلم!!

ثم قال الشيخ محمود : إيش عشرين مجلد!!

قرأناه على شيخنا مرتين ولم نكمل الثالثة!!!

وقال العلامة محمود شاكر: ”علا شأن الأمة واجتمعت، يوم أن كان إيمانها قولاً وعملاً، فلما تحول إيمانها إلى قول وجدل؛ سقطت ونفرت“ .

وقال أيضا: ”والحياة كلها صروف متعاقبة يراد بها السمو بالنفس على وجه من وجوه الألم!”

وفي معاني الهمة قال مصطفى صادق الرافعي: ”فأما العجز فمنزلة تجعل الإنسان كالنبات يرتفع عن الأرض بعوده ولكنه غائرٌ فيها بأصول حياته، وأما ضعف الهمة فمنزلة الحيوان الذي لا هم له إلا أن يوجد كيفما وجد وحيثما جاء موضعه من الوجود، إذ هو يولد ويكده ويكد ليكون لحمًا وعظمًا وصوفًا ووبرًا وشعرًا وأثاثًا ومتاعًا، وكأنه ضربٌ آخر من النبات إلا أنه نوع آخر من المنفعة.”

وأضاف: ”وأما اضطراب الرأي فمنزلة بين المنزلتين ترجع إلى هذه مرة وإلى هذه مرة وتقع من كليتهما موقعها، والعجز وضعف الهمة واضطراب الرأي في لغة العقل معانٍ ثلاثة لكلمة واحدة هي الخيبة، وما أسرار النجاح إلا الثلاثة التي تقابلها وهي القوة والعزيمة والثبات.”

وهو القائل: ”ليكن غرضك من القراءة اكتساب قريحة مستقلة، وفكر واسع، ومملكة تقوى على الابتكار، فكل كتاب يرمي إلى إحدى هذه الثلاث فاقرأ.”

وقال رحمه الله: ”ما حيلة الشمس في الحيطانِ والأبوابِ التي أنت تقيمها؟ افتح لها ... تدخل إليك.”

ومن درره في وحي القلم: ”فلن تقهر أمة عقيدتها أن الموت أوسع الجانبين وأسعدهما.”

وأيضاً: ”أنت النقص كله مع لذات الدنيا، وأنت الكمال كله مع آلامها.”

وقال في إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ”لا عزيمة لقلب خذله اللسان، ولا تشدد للسان خذله القلب، ولا استقلال لشعب تخاذلت ألسنتهم وقلوبهم.”

ومن كلماته المهيبة: ”ألا ليت المنابر الإسلامية لا يخطب عليها إلا رجال فيهم أرواح المدافع، لا رجال في أيديهم سيوف من خشب“ .

وقال أيضاً: ”إذا استقبلت العالم بالنفس الواسعة رأيت حقائق السرور، تزيد وتتسع، وحقائق الهموم تصغر وتضيق، وأدركت أن دنياك إن ضاقت فأنت الضيق لا هي.”

وقال: ”نحن على الأرض نبنى لأرواحنا في السماء! . وهو القائل: ”إذا آمنت لم تعد بمقدار نفسك، ولكن بمقدار القوة التي أنت بها مؤمن.”

ومن جميل نثره: "إن يوماً باقياً من العمر هو للمؤمن عُمرٌ ما ينبغي أن يُستهانَ به".
 "ودقيقةً باقيةً في العمر هي أملٌ كبيرٌ في رحمة الله".

وقال أيضاً في كلمة وكليمة: "ليس المصلح من استطاع أن يفسد عمل التاريخ، فهذا سهل ميسر حتى للحمقى، ولكن المصلح من لم يستطع التاريخ أن يفسد عمله من بعد".
 ولا تزال خلاصاته المتينة: "إنَّ من الناس من يختارهم الله؛ فيكونون قمع هذه الإنسانيَّة: يبنون ويحصدون، يعجنون ويخبزون، ليكونوا غذاء الإنسانيَّة في بعض فضائلها".

و"إن السعادة الإنسانية الصحيحة هي في العطاء دون الأخذ، فما المرء إلا ثمرة تنضج بموادها، حتى إذا نضجت واحلوت؛ كان مظهر كمالها ومنفعتها في الوجود أن تهب حلاوتها، فإذا هي أمسكت الحلاوة على نفسها؛ لم يكن إلا هذه الحلاوة بعينها سبب في عفنها وفسادها من بعد. أفهمت؟".

و"سرُّ السَّعادة أن تكون فيك القوى الداخليَّة التي تجعل الأحسنَ أحسنَ مما يكون، وتمنعُ الأسوأ أن يكون أسوأ مما هو".

وقال سيد قطب رحمه الله: "إن المستضعفين كثرة والطواغيت قلة فمن ذا الذي يخضع الكثرة للقلة؟ إنما يخضعها ضعف الروح وسقوط الهمة وقلة النخوة والتنازل عن الكرامة". وقال أيضاً: لماذا أسترجم؟! إن سجت بحق فأنا أقبل حكم الحق، وإن سجت بباطل فأنا أكبر من أن أسترجم الباطل".

وفي إحدى الجلسات اقترب منه أحد الضباط وسأله عن معنى كلمة "شهيد"، إشارة له إلى أن مصيرك أن تقتل، فرد عليه رحمه الله تعالى قائلاً: "كلمة "شهيد" تعني أنه شهد على أن شريعة الله أعلى عليه من حياته".

وقال مُجدِّ قطب رحمه الله: "وأما النفس القصير، وفتور الهمة بعد الحماس المشتعل، فقد يكون كذلك من آفات البيئة، ولكن الإسلام عاجله علاجاً رائعاً من كل أطرافه، فمن جهة وجه أنظارهم وأفئدتهم إلى هدف يتجاوز الحياة الدنيا كلها، والأرض كلها، والزمن كله، ويصل إلى بعد لا يدانيه بعد، وهو اليوم الآخر، وما فيه من بعث ونشور، وحساب وجزاء، وجنة ونار".

ومن أجمل الكتابات في الهمّة كتابات البشير الإبراهيمي رحمه الله حيث نشر: "همم الرجال تدكّ الجبال. وقد جرّنا هذه الصعوبات فوجدناها دروسًا نافعةً لنا وشاحذةً لعزائمنا فلا ترمينا الليالي بمحاذثةٍ إلا إذا أخذت من نفوسنا مأخذها ثم تركت فينا عزمًا وصلابةً وتمرسًا بمكاره الحياة".

وهو القائل: "إن الأمم الجادة في نهضاتها لا تقف عند حد، فلا تنتهي من عمل عظيم إلا وتبدأ فيما هو أعظم".

وقال في آثاره: "إن قوّة الإرادة هي التي ملكت زمام العالم فيما تزوّن وتسمعون".

و"لا شيء يبني الأمم ويسوق الشعوب إلى غاياتها السامية في الحياة كالألام المشتركة والنهضات المحفوفة بالأخطار".

ثم "إذا خلا الاسم من نعوت السيادة، وتجرّد أصله من حروف الزيادة، فصاحبُه هو السيّد، والصرّحُ أملاً للعيون ممرّدًا، والسيّفُ أرببُ للنفوس مجرّدًا".

وقال الإبراهيمي أيضًا: "عصرُك عصر نفوس، ومن لم يجار فيه الناهضين كان في الهالكين".

وهو القائل: "اللعبُ إنما يخلو بعد الجِدِّ، وإنّ القشورَ إنما يُلْتَفَتُ إليها بعد تحصيل اللُّبابِ، وإنّ الكماليات تأتي بعد الضروريات، وإنّ الوقت رأس مال لا يجوزُ تبديده في غير نفع".

و"اطلبوا معاني البطولة والتضحية والإيثار من سير أبطالكم، تجدوا في كلّ مفخرةٍ إمامًا".

وقال البشير الإبراهيمي: "وأخس المنازل للرجل منزلة القول بلا عمل، وأخس منها أن يكون الرجل كالدفتري يحكي ما قال الرجال وما فعل الرجال دون أن يضرب معهم في الأعمال الصالحة بنصيب أو يرمي في معترك الآراء بالسهم المصيب".

ومن خلاصاته المتينة: "لا تظنوا أن الدعاء وحده يرد الاعتداء؛ إن مادة دعا يدعو لا تنسخ مادة عدا يعدو؛ وإنما ينسخها أعدّ يعدّ واستعدّ يستعدّ، فأعدوا واستعدوا".

و"ذلك اللقاء يومَ بدرٍ لم يكن بين طائفتين قليلتين وكثيرة، وإنما كان بين عقيدتين حقّ وباطل، وإرادتين مصمّمةٍ وواهنة".

و"إن الرؤوس التي رفّعها الإسلام تأبى أن تخضع إلا للإسلام".

وفي صناعة الهمّة قال مالك بن نبي رحمه الله: “إنّها لشرعة السماء: غير نفسك تغيير التاريخ.”!

وقال أيضا: “ولكن التاريخ يقرر أن الشعب الذي لم يقيم برسالته أي بدوره في تلك السلسلة ما عليه إلا أن يخضع ويذل.”

وهو القائل: “إن الذي ينقص المسلم ليس منطق الفكرة ولكن منطق العمل والحركة فهو لا يفكر ليعمل بل ليقول كلاما مجردا.”

و”التاريخ ليس ما تصنعه الصدف ولا مكائد الاستعمار ولكن ما تصنعه الشعوب ذاتها في أوطانها.”

وقال العلامة عبد الحميد بن باديس: “قلوبنا معرضة للضعف عن القيام بأعباء التكليف، والذي يجدد لنا فيها القوة، ويبعث فيها الهمّة، هو القرآن العظيم..”

وقال أيضا: “إذا أعجب المرء بنفسه عمي عن نقائصها، فلا يسعى في إزالتها، ولهى عن الفضائل فلا يسعى في اكتسابها، فعاش ولا أخلاق له، مصدرا لكل شر، بعيدا عن كل خير...”

وقال إبراهيم السكران فرج الله عنه: “إذا أخذت تتصفح (مفكرة المهام) الصغيرة أمامك، أو استخرجت من درج مكتبك أوراقا عتيقة كنت قد رسمت فيها لنفسك (خططا) علمية ودعوية، أو حتى مهنية، سيثور مع غبار هذه الأوراق شيء من الحزن وستشعر أنك ما زلت في أدنى الوادي، بينما طموحاتك وأمنياتك وأحلامك ما زالت هي الأخرى تعانق السحاب! وليس إلى وصلها سبيل بعد.. فكيف إذا حرث المرء ذهنه وتذكر طموحا أجمل من هذه الطموحات كلها، كطموح المرء أن يرافق محمدا ﷺ في قصور الفردوس، فيعيش مستقبله السرمدى مع تلك الكوكبة الراقية”..

وهو القائل: “معالي الأمور، والطموحات الكبرى، في العلم والتعليم والتأليف والإصلاح والتغيير والنهضة بالأمة؛ لا تكشف وجهها لك، حتى تمسح العرق عن جبينك بيد ترتعش من العناء”.

وقال الشيخ صالح المنجد فرج الله عنه، في درسه عن قوة الإرادة وعلو الهمة: “قوة الإرادة وعلو الهمة موضوعان مترابطان. وهذان الموضوعان في غاية الأهمية من جهة الحاجة إليهما؛ لأنه لا يقوم بدين الله إلا من كانت له إرادة قوية وهمة عالية، فإن هذا الدين دين قويم، ودين عظيم، والله سبحانه وتعالى أنزله وامتنحن به الناس، ليرى من الذي يقوم به ممن لا يقوم، من الذي يتحرك لنصرته، وامتنثال أوامره، واجتناب نواهيه، ومن الذي يتخاذل عن ذلك، ويركن إلى الدنيا وإلى الدعة والكسل.

وهذان الموضوعان أيضًا في غاية الأهمية من جهة علاج الواقع الذي نعيش فيه، فإننا في حال هزيمة على المستوى الفردي والمستوى الجماعي، وإن العودة بالنفس والمجتمع من حال الهزيمة إلى حال الانتصار تحتاج إلى إرادة قوية وهمة عالية”.

وأضاف: “ونحن نتلفت لعلاج أنفسنا إلى الأنبياء والصحابة والتابعين والعلماء والشهداء الذين قضوا نحبتهم وهم مقيمون على طاعة الله، أولئك الذين أخرج الله سبحانه وتعالى عنهم بأنهم: صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (سورة الأحزاب: 23). أولئك أصحاب الهمم العالية، والعزائم القوية، والإرادات التي جعلت أصحابها في ذلك المستوى الإيماني المرتفع. وأيضًا فإن هذا الموضوع مهم في العبادة، والجهاد، وطلب العلم، والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى؛ لأن هذه الأمور الشرعية المطلوبة لا يمكن تحقيقها إلا بذلك”.

وقال الشيخ عبد العزيز الطريفي: “إذا كنت تسير إلى الله فلا تأخذ وصف طريقه إلا منه“.

وهو القائل: “ثلاث عشرة سنة لم أخرج إلى البر؛ بل كنت في قراءة وحفظ”.

وقال العلامة الشيخ سليمان العلوان، في درسه عن علو الهمة: “وقد علت همم الأوائل في طلب العلم، ومن عرف قدر العلم هان عليه ما يلاقي في سبيل تحصيله، وحين نستقرئ كتب السير والتواريخ نحصي المئات من أئمة الهدى يحفظون القرآن عن ظهر قلب قبل بلوغ العاشرة”.

وذكر فرج الله عنه، قصة شاب صغير اسمه هشام بن عمار صغير في سنه كبير في همته يطلب العلم وكان العلم آنذاك يطلب على يد الإمام مالك في المدينة، وهو الذي جاء فيه الخبر في أصح قولي العلماء، فبكى هشام فقال مالك: طالب حديث يبكي؟ قال هشام ما أبكي على الضرب، إذا لماذا يبكي؟ يبكي لأن والده باع بيته وأعطاه المال ينتظر منه أن يكون عالماً، كما صنع علي بن عاصم الواسطي يقول أعطاني والدي مئة ألف درهم وقال: لا أرى وجهك حتى تحفظ مئة ألف حديث فطاف البلاد شرقاً وغرباً وحصل خيراً كثيراً وكان له درس يحضره ما لا يقل عن ثلاثين ألفاً.

ومما نثره في صناعة الهمة أبو الحسن الندوي رحمه الله: ”يا أصحاب القلوب المؤمنة، أنتم المجتمع، في قسمات وجوهكم وضمائركم وعقولكم يرقد المستقبل الزاهر الذي تؤمله، فهيئوا نفوسكم تهيئة روحية خُلقية، علمية، إيمانية، هذا هو نداء الوقت، وواجب الساعة وجهاد اليوم.”

آن الأوان أن نتوقف عن قطف الأزهار الملهمة من حديقة صناعة الهمة، وإنه لبحر لا ساحل له تخلق مع درره كلما تمكنت من تذوق معانيها، ووددت أن أنقل الكثير من الدرر لكثير من الأسماء التي لا تقاوم آثارها لعمق معانيها في صناعة الهمة، وعزائي في القاعدة الجليلة “ما لا يدرك كله لا يترك جله”، ولكنه سفر من الأقوال والدعوات لا بد أن تصدقها الأعمال، وهو ما سنتوقف معه في الحلقة المقبلة بعنوان “نماذج لعظم الهمة” والتي سننتقل معها من ميدان التنظير إلى ميدان التطبيق والعمل والعطاء البشري السامي، أين نثر المسابقون من الصدق والمواقف المبهرة ما لا يعمل السامع من الحديث عنه، ومن الماضي والحاضر سنشاهد علو الهمة وعظمتها، مشاهد حية، لعلها تحيي الهمة.

وإلى ذلك الحين، قال الأديب الفقيه علي الطنطاوي رحمه الله: “وكذلك الإيمان إن نزل بقلب امرأة جعل منها بطلاً لا يُغلب، وما أعجب ما يصنع الإيمان!”. “ومن توجّه إلى الله بالانكسار رزقه الله عزّة الانتصار، ومن اعتمد على نفسه وكله الله إليها”.

نماذج لعِظم الهمة

لا يكفي سرد المقولات الملهمة عن صناعة الهمة كما فعلنا في حلقتنا السابقة من “حديقة صناعة الهمة” بل يجب أن نعرض نماذج الترجمة لهذه الأقوال في سير من سبق عبر امتداد محور الزمن، ذلك أن العمل هو أبلغ دليل على عِظم الهمة. وإنه لضرب من المستحيل حصر جميع نماذج عِظم الهمة التي تزخر بها هذه الأمة منذ بعثة النبي ﷺ لكننا نسعى في هذا الطرح لضرب الأمثلة لنشاهد جمال العطاء والمثابرة على اختلاف ميادين المسابقة واختلاف الأزمنة.

أعظم همة

إن أعظم همة هي همة النبي مُحَمَّد ﷺ، والذي أقام من قبائل متناحرة تعبد الأصنام، غلب عليها العناد والكبر، في ظرف قياسي، أعظم دولة عرفتها المنطقة سادت العالم وكان رجالها ساداته.

لذلك فلا تبحث عن أي نموذج لعِظم الهمة قبل أن تقف عند نموج رسول الله صلى الله عليه وسلم، في بيته ومسجده ومجلسه وقيادته وساحات معاركه، وكل مقام ترك فيه الأثر العظيم الذي أذهل المسلمين وحتى الكافرين، بعد عقود طويلة، لما أبصروه من عِظم همته الذي لا نظير له.

لقد قاد الرسول ﷺ بنفسه خلال عشر سنين سبعا وعشرين غزاة، ولا يزال يردد أنه يتمنى قيادة جميع البعث والسرايا وفي ذلك روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: “والذي نفسي بيده، لولا أن رجلاً من المسلمين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني، ولا أجد ما أحملهم عليه، ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله، والذي نفسي بيده لو ددت أن أقتل في سبيل الله ثم أحيأ، ثم أقتل ثم أحيأ، ثم أقتل ثم أحيأ، ثم أقتل”.

ويشهد على عظم همته ﷺ حديث عائشة رضي الله عنها حيث قالت: أن النبي ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقلت له: لم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: "أفلا أكون عبداً شكوراً".

وحديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حيث قال: صليت مع النبي ﷺ ليلة فأطال القيام، حتى هممت بأمر سوء، قيل وما هممت به؟ قال: هممت أن أجلس وأدعه".

فتأمل عظم هذه الهمة خاصة حين نعلم أنه ﷺ في مقام خاتم الأنبياء وسيد المرسلين والخلق أجمعين، ومع ذلك لم تنزل همته تقدم أروع نموذج في مختلف أشكال العطاء الذي عرفته البشرية.

ومن المشاهد التي تنبض بعلو الهمة في سيرة رسول الله ﷺ رحلته إلى الطائف، ودرجة المشقة التي حفتها منذ خروجه من مكة إلى ما بعد وصوله للطائف، كل ذلك لم يثن عزمه عن تبليغ الرسالة بعد أن قطع المسافات في كبد، وهو يعلم كيف آل مآله مع قريش بعد موت عمه أبي طالب، وزوجته أم المؤمنين خديجة رضي الله عنهما.

لقد سار رسول الله ﷺ إلى الطائف على قدميه الشريفتين مسافة أكثر من 85 كم في عمق الصحراء وفوق لظى الرمال، لم يوقف تقدمه حر ولا ربح، خرج من أذى قريش في مكة حتى بلغ ولقي ما لقيه من أذى أهل الطائف، كل ذلك لم يعجزه عن تبليغ الرسالة والصبر على أداؤها. فتأمل عظم هممة النبي ﷺ.

لم يترك الرسول ﷺ دعوته، لا لأذية قبيلته وأهل بلده ولا لمشقة الطريق وتبعات المسير ولا لقساوة الرد بعد كل هذا الجهد، رغم أنهم سلطوا عليه صبيانهم ﷺ يرمونه بالحجارة، وسالت الدماء من قدميه الشريفتين، وشج رأس زيد بن حارثة - رضي الله عنه - مرافقه، فلم يرض له الله أن يخرج إلا وقد أقر عينه بعدّاس النصراني، يخدمه ويؤمن به.

لقد خذل أهل مكة رسول الله ﷺ رغم كل ما بذله من بر لهم، وكذلك خذله أهل الطائف رغم كل الصبر الذي صبره على سوء معاملتهم له، فكانت مواساة الله تعالى له ﷺ، رجل نصراني من العراق من نينوى البعيدة يأتيه فيقبل يديه ورجليه، ويؤمن به نبياً! لقد كان ذلك منحة من ربه جزاء صبره ﷺ على المحن واحتسابه للشدائد.

ولا يزال عظم همة ﷺ يتردد مع كل مرة تتدبر فيها قوله ﷺ عندما رفض الانتقام من أهل الطائف فقال ﷺ: “بل أرجو أن يُخْرِجَ اللهُ من أصلابهم مَنْ يعبد الله وحده لا يُشرك به شيئاً”²⁶.

فأي عِظَمِ همة في الحق يضاهي عِظَمِ همة النبي ﷺ!

إن من رسائل رحلة رسول الله ﷺ إلى الطائف، أن طريق الحق طريق صبر على البلاء والمصائب والخذلان والعدوان من القريب والبعيد لكنه في نفس الوقت طريق العون والنصر والفرج من الله سبحانه، وما خاب من ثبت على دين الله وتمسك به وضحى لأجله. وما بعد المحن الكبرى للمؤمنين إلا المنح الكبرى. فإن شئت الاقتداء عليك بهمة رسول الله ﷺ.

عِظَمِ همة الصحابة رضي الله عنهم

ولاشك أن صحابة رسول الله ﷺ من حوله ﷺ كانوا نماذج فريدة لعِظَمِ الهمة لذلك حازوا لقب الجيل المتفرد الذي تميز في همة وإنجازاته وقوة اتباعه للحق وشدة محبته لنبي الله ﷺ.

لقد ارتفعت بالصحابة ﷺ همهم لإعلاء كلمة الله، ولنصرة الإسلام والمسلمين في كل مكان مهما بُعد، فبدلوا أنفسهم رخيصة في سبيل تحقيق ذلك.

قال تعالى (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا) (الأحزاب: 23).

ويرجع علماء سبب نزول هذه الآية العظيمة لصدق أنس بن النضر رضي الله عنه، فعن أنس بن مالك في صحيح الترمذي قال: “قال عمي أنس بن النضر، سميتُ به، لم يشهد بدراً مع رسول الله ﷺ فكبرَ عليه، فقال: أولُ مشهدٍ شهدَهُ رسولُ اللهِ ﷺ غِبتُ عنه، أما والله لئن أراني اللهُ مشهداً مع رسولِ اللهِ ﷺ ليرينَ اللهُ ما أصنع، قال: فهابَ أن يقولَ غيرها، فشهدَ مع رسولِ اللهِ ﷺ يومَ أُحدٍ منَ العامِ القابلِ فاستقبلَهُ سعدُ بنُ معاذٍ، فقال: يا أبا

(26) متفق عليه.

عمرو أين؟ قال: واهًا لريح الجنة أجدّها دون أحدٍ، فقاتل حتى قتل، فوجد في جسده بضع وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية، فقالت عمّتي الربيّع بنت النضر: فما عرفتُ أخي إلا بنائه. ونزلت هذه الآية رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً”.

هكذا كانت همة أنس رضي الله عنه، صدق مع الله فصدقه. وهو مشهد عظيم لعلو الهمة في الحق ترخص فيه النفس ويرخص النفيس، وكان ذلك دأب جميع الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

ولا يمكننا في هذا المقام سرد جميع قصص علو الهمة للصحابة رضي الله عنهم فهي سلسلة من الجمال البديع الذي لا ينقطع، لذلك نشير لعلو همة أحد أبرز الصحابة رضي الله عنه، الصحابي الجليل، سلمان الفارسي رضي الله عنه الذي ظل يبحث عن الحقيقة بنفسه حتى بلغها رغم كل العقبات التي مر بها.

ولتأمل معانيها في حديثه بنفسه، حيث قال سلمان الفارسي رضي الله عنه: ” كنت رجلاً فارسياً من أهل أصبهان من قرية منها يقال لها: جي، وكان أبي دهقان قريته، وكنت أحب خلق الله إليه، فلم يزل به حبه إياي حتى حبسني في بيت كما تحبس الجارية، واجتهدت في الجوسية حتى كنت قطن النار الذي يوقدها لا أتركها تحبو ساعة. قال: فكانت لأبي ضيعة عظيمة قال: فشغل في بنيان له يوماً فقال لي: يا بني، (إني) قد شغلت في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي فاذهب فاطلّعها، وأمرني فيها ببعض ما يريد (ثم قال لي: لا تحتبس علي، فإنك إن احتبست علي كنت أحم علي من ضيعتي وشغلتني عن كل شيء من أمري) فخرجت أريد ضيعتي، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون، وكنت لا أدري ما أمر الناس بحبس أبي إياي في بيته، فلما مررت بهم وسمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ماذا يصنعون، فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم ورغبت في أمرهم، وقلت: هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه، فوالله ما تركتهم حتى غربت الشمس، وتركت ضيعة أبي ولم آتها، فقلت لهم: أين أصل هذا الدين؟ قالوا: بالشام. قال: ثم رجعت إلى أبي وقد بعث في طلبي وقد شغلته عن عمله كله قال: فلما جئته قال: أي بني أين كنت؟ ألم أكن عهدت إليك ما عهدت؟! قلت: يا أبتى مررت بناس يصلون في كنيسة لهم

فأعجني ما رأيت من دينهم، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس. قال: أي بني ليس في ذلك الدين خير، دينك ودين آبائك خير منه قال: قلت: كلا والله إنه لخير من ديننا قال: فخافني، فجعل في رجلي قيدًا، ثم حبسني في بيته. قال: وبعثت إلى النصارى، وقلت لهم: إذا قدم عليهم من الشام تجار من النصارى فأخبروني بهم. فأقبل عليهم ركب من الشام تجار من النصارى، فأخبروني، قال: فقلت: إذا قضا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنوني بهم. قال: فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم (أخبروني بهم، ف) ألقيت الحديد من رجلي، ثم خرجت معهم حتى (قدمت) الشام، فلما قدمتها قلت: من أفضل أهل هذا الدين؟ قالوا: الأسقف في الكنيسة. قال: فجئته، فقلت: إني قد رغبت في هذا الدين، وأحببت أن أكون معك في كنيستك، أخدمك في كنيستك وأتعلم منك وأصلي معك. قال: ادخل، فدخلت معه. قال: فكان رجل سوء؛ يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا منها شيئًا اكتنزه لنفسه ولم يعط المساكين، حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق. قال: وأبغضته بغضًا شديدًا لما رأيته يصنع، ثم مات فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه، فقلت لهم: إن هذا كان رجل سوء؛ يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها، فإذا جمعتم له منها أشياء جئتموه بها اكتنزها لنفسه، ولم يعط المساكين منها شيئًا قالوا: وما علمك بذلك؟ قلت: أنا أدلكم على كنزه قالوا: فدلنا عليه قال: فأريتهم موضعه، فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهبًا وورقًا، فلما رأوها قالوا: والله لا ندفنه أبدًا قال: فصلبوه، ثم رجموه بالحجارة، ثم جاءوا برجل آخر فجعلوه بمكانه.

قال سلمان رضي الله عنه: قلما رأيت رجلًا يصلي الخمس أرى أنه أفضل منه، ولا أزهدي في الدنيا ولا أرغب في الآخرة، ولا أدأب ليلًا ونهارًا منه. قال: فأحببته حبًا لم أحبه من قبله، فأقمت معه زمانًا، ثم حضرته الوفاة، فقلت له: يا فلان، إني كنت معك، وأحببتك حبًا لم أحبه أحدًا قبلك، وقد حضرك ما ترى من أمر الله، فيألى من توصي بي؟ وما تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما أعلم أحدًا اليوم على ما كنت عليه، لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجل بالموصل، وهو فلان، فهو على ما كنت عليه فالحق به. قال: فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل، فقلت له: يا فلان، إن فلانا أوصاني عند موته أن ألحق بك، وأخبرني أنك على مثل أمره، قال: أقم عندي فأقمت عنده فوجدته خير رجل،

(على أمر صاحبه) فلم يلبث أن مات، فلما حضرته الوفاة قلت له: يا فلان، إن فلاناً أوصاني إليك، وقد أمرني باللحوق بك، وقد حضرك من أمر الله ما ترى فيألى من توصي بي؟ وما تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه إلا رجلاً بنصيبين (وهو فلان، فالحق به، قال: فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين). فجئته فأخبرته خبري، وما أمرني به صاحبي قال: أقم عندي، (فأقمت عنده) فوجدته على أمر صاحبيه، فأقمت مع خير رجل، فوالله ما لبث أن نزل به الموت، فلما حضر قلت: يا فلان، إن فلاناً كان أوصى بي إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فيألى من توصي بي؟ وما تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما أعلم أحداً بقي على أمرنا أمرك أن تأتيه إلا رجلاً بعمورية؛ فإنه على مثل ما نحن عليه، فإن أحببت فأته؛ فإنه على مثل أمرنا، قال: فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية، فأخبرته خبري، فقال: أقم عندي، فأقمت مع رجل على أمر أصحابه وهديهم، واكتسبت حتى صارت لي بقيرات وغنيمة. قال: ثم نزل به أمر الله - عز وجل - . قال: فلما حضر قلت له: يا فلان، إني كنت مع فلان وإنه أوصى بي إلى فلان، وأوصى إلى فلان وأوصى إلى فلان إلى فلان وأوصاني فلان إلى فلان إليك، فيألى من توصي بي؟ وما تأمرني؟ قال: فإنني والله ما أعلم أحداً على ما كنا عليه من الناس أمرك أن تأتيه، ولكن قد أظلك زمان نبي هو مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب، مهاجره إلى أرض بين حرتين، بينهما نخل، به علامات لا تخفى: يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل. قال: ثم مات وغيب، فمكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث، ثم مر بي نفر من كل تجار، فقلت لهم: تحملوني إلى أرض العرب وأعطيكم بغيراتي هذه وغنمتي هذا؟ فقالوا: نعم، فأعطيتموها فحملوني حتى إذا قدموا بي وادي القرى ظلموني فباعوني من رجل من يهود، وكنت عنده، ورأيت النخل، ورجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي ولم يحق في نفسي، فبينما أنا عنده قدم عليه ابن عم له من المدينة من بني قريظة، فابتاعني منه فحملني إلى المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتھا بصفة صاحبي، فأقمت بها، وبعث الله نبيه - ﷺ - فأقام بمكة، لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق، ثم هاجر إلى المدينة، فوالله إني لفي رأس عذق لسيدي أعمل فيه بعض العمل، وسيدي جالس إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه، فقال: فلان،

قاتل الله بني قيلة والله إنهم الآن مجتمعون على رجل قدم من مكة اليوم يزعم أنه نبي. قال: فلما سمعتها أخذتني العرواء حتى ظننت سأسقط على سيدي. قال: ونزلت عن النخلة، وجعلت أقول لابن عمه (ذلك): ماذا تقول؟ ماذا تقول؟ فغضب سيدي، فلكنني لكمة شديدة، ثم قال: ما لك ولهذا؟ أقبل على عملك. قال: قلت: لا شيء إنما أردت أن أستثيه عما قال. وكان عندي شيء قد جمعته، فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت به إلى رسول الله - ﷺ - وهو بقباء، فدخلت عليه، فقلت له: إنه بلغني أنك رجل صالح ومعك أصحاب لك غرباء ذو حاجة، وهذا شيء كان عندي للصدقة فرأيتكم أحق به من غيركم، فقربت به إليه، فقال رسول الله - ﷺ - لأصحابه: "كلوا". وأمسك يده فلم يأكل قال: فقلت في نفسي: هذه واحدة. ثم انصرفت، عنه فجمعت شيئاً، وتحول رسول الله - ﷺ - إلى المدينة، ثم جئته، فقلت: إني رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية أكرمتك بها، قال: فأكل رسول الله - ﷺ - منها، وأمر أصحابه فأكلوا معه. قال: فقلت في نفسي: هذه اثنتان. قال: ثم جئت رسول الله - ﷺ - وهو ببيقاع الغرقد وقد تبع جنازة من أصحابه، عليه شملتان له، وهو جالس في أصحابه، فسلمت عليه، ثم استدرت أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي، فلما رأيت رسول الله - ﷺ - عليه وسلم - استدبرته عرف أنني أستثبت في شيء قد وصف لي. قال: فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم وعرفته، فانكببت عليه أقبله وأبكي، فقال لي رسول الله - ﷺ - : "تحول". فتحولت، فقصصت عليه حديثي - كما حدثتك يا ابن عباس - فأعجب رسول الله - ﷺ - أن يسمع ذلك أصحابه. وشغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول الله - ﷺ - بدر وأحد. قال: ثم قال لي رسول الله - ﷺ - : "كاتب يا سلمان".

فكاتب صاحب علي ثلاث مائة نخلة أحبيها له بالعفير، وبأربعين أوقية.

فقال رسول الله - ﷺ - لأصحابه: "أعينوا أخاكم".

فأعانوني بالنخل، الرجل بثلاثين ودية، والرجل بعشرين ودية، والرجل بخمس عشرة ودية، والرجل بعشر، يعين الرجل بقدر ما عنده حتى إذا اجتمعت إلي ثلاثمائة ودية قال رسول الله - ﷺ - : "أذهب يا سلمان فعفر لها، فإذا فرغت فائتني فأكون أنا أضعها بيدي". قال: فعفرت لها وأعاني أصحابي حتى إذا فرغت منها جئته فأخبرته، فخرج رسول الله - ﷺ -

ﷺ - معي إليها، فجعلنا نقرب إليه الودي ويضعه رسول الله - ﷺ - بيده ، فوالذي نفس سلمان بيده ما مات منها ودية واحدة، فأديت النخل وبقي علي المال، فأتى رسول الله - ﷺ - بمثل بيضة دجاجة من ذهب من بعض المعادن، فقال: ” ما فعل الفارسي المكاتب ؟ “. قال: فدعيت له، فقال: ” خذ هذه فأد بها ما عليك يا سلمان “.

قال: قلت: وأين تقع هذه يا رسول الله مما علي؟ قال: ” خذها؛ فإن الله سيؤدي بها عنك “. قال: فأخذتها، فوزنت لهم منها والذي نفس سلمان بيده أربعين أوقية، فأوفيتهم حقهم وعتقت، فشهدت مع رسول الله - ﷺ - الخندق، ثم لم يفتني معه مشهد).²⁷

تأمل هذه كلمات الصحابي سلمان الفارسي رضي الله عنه بنفسه تظهر من خلالها المعاني الجليلة لعظم همته مع كل فصول رحلته الطويلة في البحث عن الحقيقة، فهل تختصر الكلمات روعة عظم همته التي قادته لأشرف المقامات، رفقة سيد الخلق أجمعين ﷺ. ومثل ذلك الكثير من عظم الهمة في حياة الصحابة والصحابيات رضي الله عنهم وأرضاهم.

عظم همة التابعين والسلف الصالح

إنها لنماذج كثيرة جداً يعي القلم بإحصاء روائعها من علو وعظم همة السلف الصالح، رجالاً ونساءً، قد نقل من ذلك الكثير من الأفاضل في المؤلفات في هذا الباب، لكننا نقف مع بعضها للاستئناس، منها همة الإمام أحمد رحمه الله حيث رآه بعض عارفيه في إحدى رحلاته في طلب الحديث فقال له معترضاً مستكثراً ما حفظ وما كتب وما روى: “ مرة إلى الكوفة ومرة إلى البصرة ! إلى متى؟ فقال الإمام أحمد: “ مع المحبرة إلى المقبرة ”. وكان ذلك حال الإمام أحمد حقاً.

وتأمل كيف تتحدث فاطمة بنت عبد الملك زوج أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله عن همة زوجها: “ ما رأيت أحداً أكثر صلاة ولا صياماً منه، ولا أحداً أشد فرقاً من ربه منه، كان يصلي العشاء، ثم يجلس يبكي حتى تغلبه عيناه، ثم ينتبه، فلا يزال يبكي حتى

(27) رواه سلمان الفارسي، نقله الألباني في السلسلة الصحيحة وقال: إسناده حسن.

تغلبه عيناه، ولقد كان يكون معي في الفراش فيذكر الشيء من أمير الآخرة، فينتفض كما ينتفض العصفور من الماء، ويجلس يبكي، فأطرح عليه اللحاف.”

وذاك صفوان بن سليم قد تعقدت ساقاه من طول القيام، وبلغ من الاجتهاد ما لو قيل له: “القيامه غداً” ما وجد متزيّداً. ... وكان يقول: “اللهم إني أحب لقاءك فأحب لقائي”، وقال أنس بن عياض: “رأيت صفوان بن سليم، ولو قيل له: “غداً القيامه” ما كان عنده مزيد على ما هو عليه من العبادة”. فتأمل هذا الجمال في عِظم الهمة، لا ينقطع!

وعن موسى بن إسماعيل قال: “لو قلت لكم إني ما رأيت حماد بن سلمة ضاحكاً قط صدقتكم، كان مشغولاً بنفسه: إما أن يحدث، وإما أن يقرأ، وإما أن يسبح، وإما أن يصلي، كان قد قسم النهار على هذه الأعمال”.

وعن وكيع قال: “كان الأعمش قريباً من سبعين سنة لم تفته التكبيرة الأولى، واختلفت إليه أكثر من ستين سنة، فما رأيت يقضي ركعة”.

وعن أبي حيان، عن أبيه، قال: “كان الربيع بن خثيم يقاد إلى الصلاة وبه الفالج - الشلل -، ف قيل له: “قد رخص لك”، قال: “إني أسمع” حي على الصلاة”، فإن استطعتم أن تأتوها ولو حبواً”.

وقال الحافظ قطب الدين الحلبي عن الشيخ تقي الدين: “.... وكان لا ينام من الليل إلا قليلاً، ويقطعه فيما بين مطالعة وتلاوة وذكر وتجدد حتى صار السهر له عادة، وأوقاته كلها معمورة لم ير في عصره مثله”.

وتلك أمثلة مهيبة عن عِظم الهمة في العبادة، وهذا أبو الفرج ابن الجوزي يحدثنا عن عِظم همته في طلب العلم وهو يخاطب ابنه فيقول: “وانظر يا بني إلى نفسك عند الحدود، فتلمّح كيف حفظك لها؟ فإنه من راعى رُوعه، ومن أهمل تُرك... فلإني أذكر نفسي ولي همة عالية، وأنا في المكتب ولي نحو من ست سنين، وأنا قرين الصبيان الكبار قد رُزقت عقلاً وافرًا في الصغر يزيد على عقل الشيوخ، فما أذكر أني لعبت في طريق مع صبي قط، ولا ضحك ضحكاً جارحاً، حتى إني كنت ولي سبع سنين أو نحوها أحضر رحبة الجامع، ولا

أُتخِرُ حلقةً مشعبدٍ، بل أطلب المحدث، فيتحدث بالسند الطويل، فأحفظُ جميعَ ما أسمع، وأرجع إلى البيت فأكتبه.

ولقد وُقِّقَ لي شيخنا أبو الفضل ابن ناصر رحمه الله، فكان يحملني إلى الأشياخ، وأسمعني (المسند) وغيره من الكتب الكبار، وأنا لا أعلم ما يُراد مني، وضبط لي مسموعاتي إلى أن بلغت، فناولني ثبتها، ولازمته إلى أن توفي رحمه الله، فأدركتُ به معرفة الحديث والنقل.

ولقد كان الصبيان ينزلون دجلة، ويتفرجون على الجسر، وأنا في زمن الصغر آخذ جزءاً، وأقعد حُجرةً من الناس إلى جانب الرِّقة فأتشاغلُ بالعلم.

ثم قال: “ولم أقنع بفنٍّ واحد من العلم، بل كنت أسمع الفقه والوعظ والحديث وأتبع الزهاد. ثم قرأت اللغة ولم أترك أحداً ممن قد انزوى أو يعظ، ولا غريباً يقدم إلا وأحضره وأتخير الفضائل... ولقد كنت أدور على المشايخ لسماع الحديث، فينقطع نفسي من العدو لئلا أُسبق، وكنت أصبح وليس لي ما أكل، وأمسي وليس لي شيء، وما أدلني الله لمخلوق، ولكنّه ساق رزقي لصيانة عرضي، ولو شرحتُ أحوالي لطلال الشرح.”

فمن يجرأ على الشكوى في طلب العلم أمام هذه الهمة!

نماذج من عظم همة النساء

نماذج عظم همم النساء كثيرة جداً، نأخذ منها على سبيل المثال، همة آسيا امرأة فرعون وكيفيك قول الله تعالى عنها (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (التحریم: 11)، فامرأة لوحدها في مملكة يحكمها زوجها الطاغية وكان أعظم ملوك الأرض حينها، تثبت على الإيمان وتصبر على شدة الابتلاء سائلة الله أن يجعل لها عنده بيتاً في الجنة، ومن جميل همتها أنها جعلت كلمة “عندك” أي عند الله تسبق كلمة “بيتاً”، ما يعكس شدة محبتها لله سبحانه وتعالى.

ولو لم يكن للنساء من فضل في هذه الأمة إلا أن أول مسلم كانت خديجة وأول شهيد في الإسلام سمية أم عمار. قال ابن الأثير: “خديجة أول خلق الله أسلم بإجماع المسلمين”.

ومن نماذج عِظم همة المرأة، همة أم إسماعيل، هاجر، زوج الخليل إبراهيم، عليه السلام، مع كل ما مر عليها من ابتلاء، يتركها زوجها في عمق رمال الصحراء، وهديرها الكالح، فتقول: يا إبراهيم! الله أمرك بهذا؟ يقول: نعم، تقول: إذا فلن يضيعنا.

وإنما ذكرت الهمة ذكرت أم المؤمنين، الصديقة بنت الصديق زوج رسول الله ﷺ، الفقيهة الربانية، عائشة رضي الله عنها، قال عنها أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: "ما أشكل على أصحاب رسول الله ﷺ حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً". وقال الزهري: لو جمع علم الناس كلهم وعلم أمهات المؤمنين، لكانت عائشة أوسعهم علماً. ويبلغ مسند عائشة رضي الله عنها (2210) أحاديث.

ومن نماذج عِظم الهمة، همة ابنة سعيد بن المسيب التي كانت تُعلم زوجها علم أبيها، ولما أراد أن يمضي إلى حلقة والدها قالت: إلى أين؟ قال: إلى مجلس أبيك أتعلم العلم، قالت: اجلس هاهنا أعلمك علم سعيد بن المسيب.

ومن نماذج علو الهمة عصمة الدين، زوجة صلاح الدين الأيوبي، وكانت قبله زوجة نور الدين محمود زنكي. عرفت بقيامها الليل وصدقاتها الكثيرة، وهذه نماذج على سبيل المثال لا الحصر وإلا فإن عِظم همم نساء المسلمين لا تسعه المؤلفات.

في هذا العصر

وفي هذا العصر الكثير من نماذج الهمم المبهرة، وقد سبق وأن عرضت سير 25 علماً من أعلام الأمة في كافة ميادين العطاء في كتابي "نجوم على الطريق"، منذ سقوط الدولة العثمانية إلى اليوم، فيها عرض كافٍ عن عِظم الهمة لدى أعلام المسلمين من مختلف الأمصار، كل قصة كانت بمثابة مدرسة، وكل تجربة كانت مختلفة عن أختها فحوت الكثير من أسرار صناعة الهمة.

ومن بين هؤلاء النجوم كان عمر المختار الذي استمر عِظم همته ينحت الدروس، حتى بلغ من العمر 73 سنة لينتهي مسيرته الجهادية شهيداً كما نحسبه وهو صاحب مقولة: "إننا نقاتل من أجل ديننا وحررتنا حتى نطرد الغزاة أو نموت وليس لنا أن نختار دون هذا".

ومن النماذج الرائعة في ميدان الدعوة لله، الشيخ عبد الرحمن السميط الذي بذل عمره في دعوة الأفارقة للإسلام، مكافحاً الفقر والتنصير ليصل عمق أثره لأكثر من 29 دولة إفريقية، فقدم نموذجاً مبهرًا لعظم الهمة طيلة نصف قرن قاد خلالها المشاريع الخيرية المؤثرة، فكان من ثمرات عظم همته، أن اعتنق الإسلام على يديه نحو 11 مليون إفريقي .

لقد كان الشيخ عبد الرحمن رائد ومؤسس قائمة طويلة من المؤسسات الخيرية والاجتماعية لخدمة المنكوبين وإغاثة المستضعفين آخذاً بيدهم إلى عظمة الإسلام. ولم يرحل حتى ترك أثراً كبيراً بكفالاته لآلاف الأيتام والطلاب وتشييده لمئات المساجد والمدارس والجامعات والمراكز الإسلامية فضلاً عن حفر مئات الآبار وتوزيع ملايين المصاحف.

وفي الواقع فإن قصص عظم الهمة كثيرة جداً وصاحب القلب الحيّ تكفيه قصة واحدة للاعتبار وشحد الهمة، بل تكفيه كلمة واحدة، ليقوم قومة البطل، وليس بالأمر العزيز في أيامنا هذه.

فمن أحدث قصص البطولة وعظم الهمة حتى لا يقال أن زماننا يفتقدها، قصة الشاب الفلسطيني المسلم، عمر أبو ليلي، والذي كان سيبلغ من العمر الـ19 عاماً بعد شهرين من استشهاد، من أهالي قرية الزاوية غرب محافظة سلفيت شمال الضفة الغربية، قد قدم نموذجاً مبهرًا لعظم الهمة وصدق الإقبال حين حفر لوحده بطولة متعددة المشاهد أمام قوات الاحتلال الصهيوني ختمها شهيداً نحسبه، مقبلاً غير مدبر، لم يرهبه عدد أعادته ولا عتادهم.

تحكي لنا أمه تفاصيل عن همته فتقول أن ابنها عمر خرج من منزله صباحاً. وكانت تعتقد أنه ذهب للجامعة أو العمل، حتى تفاجأت بخبر ابنها على عناوين الأخبار قد قاد منفرداً هجوماً على قوات الاحتلال الصهيوني.

قالت الأم عن فلذة كبدها: “دمعته قريبة، يحزن على الغريب والقريب.. كنت أعطيه مصروفًا ويعود ليخبرني أنه تبرع به في المسجد أو اشترى حلوى للأطفال” ورغم رقة قلبه وعطفه، قالت إن “عمر كان شجاعاً منذ صغره وحتى استشهاد،” ثم أضافت: “نرفع رأسنا لبطولته، وإن شاء الله سيأتي أمثاله الآلاف ليكملوا مسيرة تحرير فلسطين”.

لقد هزّ عمر أبو ليلي الاحتلال الصهيوني وجيشه، حيث نفذ عملية بطولية قرب مستوطنة سيليفت الإسرائيلية كان مشهدها رجل واحد بسلاحه مقابل جيش ومنظومة أمنية متطورة وعدة وعناد لا يحصى.

فقد اقتحم عمر تجمّعاً لجنود إسرائيليين وطعن أحدهم ثم غنم سلاحه وقضى عليه برصاصه، وتقدم بحرية وشجاعة واستولى على سيارة للصهاينة، فامتطأها وقادها بسرعة ليهاجم أكثر من تجمع للمستوطنين والجنود الإسرائيليين ثم انسحب من مكان العملية واتجه نحو بلدة بروقين حيث اختفى فيها. مخلّفاً وراءه عدة قتلى وجرحى من الصهاينة والكثير من الهلع.

وفي وسط من التخبط والرعب أطلق الصهاينة اسم «عملية أرائيل المزدوجة» على عملية عمر، وفشلوا فشلاً ذريعاً في إلقاء القبض عليه بل حتى في تحديد هويته²⁸.

لقد كان عمر يعلم أن مصيره الموت، لكنه استعد له استعداد الشهيد الموقن بوعده ربه، فاتجه نحو مغارة وجّهز نفسه للرحيل كبطل مودّع، ينتظر قدوم أعدائه، خاصة وأنه علم أن الخونة من بني جلدته قد قدموا معلوماته لأسيادهم الصهاينة الذين عجزوا عن الوصول إليه.

ووصلت بالفعل القوات الإسرائيلية وانطلقت معركة الرصاص والانفجارات، بين عشرات الجنود والضباط وبين الشاب الصغير عمر أبو ليلي الذي كان لوحده. فعرضوا عليه الاستسلام فرفض ثم قاتل حتى آخر رمق لم يعرف قلبه التراجع أو الخوف لأكثر من 70 ساعة من المواجهة، أرهاق خلالها أعداءه وكشف مدى عجزهم وجبنهم.

لقد أثار خبر استشهاد عمر تأثيراً عميقاً بين أهل فلسطين والمسلمين في العالم، وفرحوا ببطولته فرحاً كبيراً، لإحيائه معاني الاستعلاء بالإيمان في قلب المحنة وتكالب الصهاينة، وزاده شرفاً أن تحرك رئيس حكومة الاحتلال بنفسه يعلن ارتياحه لإنهاء المعركة مع عمر، وكذلك أعربت عن ارتياحها قيادات كبيرة في الجيش والحكومة. وكانت كل تلك التصريحات تشني على جهود القوات الإسرائيلية لإنهاء المعركة مع عمر، وما وصفته بالإنجاز، كأن المعركة وقعت بين جيش وجيش، فسبحان الله الذي كشف جبنهم على يد عبد من

(28) تقارير صحفية.

صبروا على قطع مسافة العمر، (فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا).

نقف عند هذا الحد لنتقني في حلقة أخيرة مقبلة من سلسلة صناعة الهمة بعنوان
“خلاصات مودّع عن صناعة الهمة”، إلى ذلك الحين، ردد أبيات ابن هانئ الأندلسي:

ولم أجد الإنسان إلا ابن سعيه
فمن كان أسعى كان بالمجد أجدر
وبالهمة العليا يرقى إلى العلا
فمن كان أرقى همّة كان أظهر
ولم يتأخر من يريد تقدماً
ولم يتقدم من يريد تأخراً

خلاصات مودّع عن صناعة الهمة

بعد رحلتنا الطويلة في سفر صناعة الهمة نصل للمحطة الأخيرة ولكل بداية نهاية في حياتنا الدنيا، ولتكن هذه المحطة خلاصات مودّع سيرحل حتمًا يومًا عن هذه الأرض، لعلنا نسد ثغرات ما سبق طرحه من تفاصيل في هذا الفن. وإن أفضل الأعمال هي تلك التي تقبل عليها كمودّع انتهت فرصه، فتسعى لكمالها مهما اعتراك من تقصير.

وأول خلاصة هي ضرورة حفظ الإيمان وتقويته، فلا يمكن للإيمان إلا أن يُرسّخ علو الهمة والاستعلاء والعزة والمروءة والشهامة وما دار في فلك الرقي والعظمة. فكلما قوي الإيمان قويت هذه الفضائل وكلما ضعف ضعفته معه وارتفعت مع هذا الضعف الرذائل. لذلك تبدأ المعالجة من معالجة الإيمان وتقويته والعناية به. فالإيمان أول سر لتحقيق الأجداد والبطولات.

وفراسة الإيمان.. تكسب صاحبها قوة في الفهم وتعمقًا في ثنايا النفس، فتحسن الإعذار وتحسن الإنكار في ذات الوقت، وتجمع بين الدعوة للخير والفتنة من المكر.

ثم إن علو الهمة هو أن تعيش لله وفي سبيل الله كما عرفه ابن القيم حيث قال: "علو الهمة ألا تقف -أي النفس- دون الله وألا تتعوض عنه بشيء سواه ولا ترضى بغيره بدلًا منه ولا تبيع حظها من الله وقربه والأنس به والفرح والسرور والابتهاج به بشيء من الحظوظ الخسيسة الفانية، فالهمة العالية على الهمم كالطائر العالي على الطيور لا يرضى بمساقطهم ولا تصل إليه الآفات التي تصل إليهم، فإن الهمة كلما علت بعدت عن وصول الآفات إليها، وكلما نزلت قصدها الآفات". فاجعل وصالك مع الله هو وقود همتك واستدراكك، في أحسن حالاتك وأسوئها.

واستذكر دائماً أن هذه الدنيا فانية وأن هناك لقاء مع الله سبحانه، فاجعل دنيك حجة لك أمام الله يوم تلقاه، قال معاذ رضي الله عنه على فراش الموت: "اللهم إنك تعلم أنني لم أكن أحب البقاء في الدنيا ولا طول المكث فيها لجري الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن كنت أحب البقاء لمكابدة الليل الطويل، وظمأ الهواجر في الحر الشديد، ولمزاحمة العلماء بالركب في حلِّ الذكر".²⁹

ثم إن المعاني لشحذ الهمة كثيرة جداً، وأول معنى عليك العناية به بعد عبوديتك لله، هو كينونتك ووجودك فاحفظه بهمة عالية.

إذا القوم قالوا: من فتي؟ خلْتُ أنني عُنَيْتُ فَلَمْ أَكْسَلْ ولم أَتَبَدَّدِ

ولم يحقق أعلام الإسلام وأبطاله ما حققوه من روائع في التاريخ إلا بترك الرفاهية والدعة وخوض غمار الجد ومعالي الأمور، قال شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني في كتابه "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب": "أهديت إليه - أي عبد الرحمن الداخل - جارية جميلة فنظر إليها وقال: "إن هذه من القلب والعين بمكان، وإن أنا اشتغلت عنها بهمتي فيما أطلبه ظلمتها، وإن اشتغلت بها عما أطلبه ظلمت همتي، ولا حاجة لي بها الآن، وردها على صاحبها" فكان من بعد ذلك أن حقق أكبر أهدافه وعلا شأنه وأسس دولة عظيمة في الأندلس شهد لها العالم بالتألق ودخل اسمه في سير أعلام نبلاء عصره. فتأمل.

ثم إن الانغماس في كل أشكال السعادة وما تهوى النفس وتحب، لا يساوي لحظة سكونية وطمئينة يقذفها الله في قلبك... لا يساوي لحظة سعادة يُحدثها وصال الصدق مع ربك.. وذلك نعيم المؤمنين في الدنيا قبل الآخرة، فكيف وهم على منابر الفوز والرضوان... في جنة الخلد!

(29) حلية الأولياء.

وعلو الهمة يعني أن تشغل كل وقتك بالعمل، وكذلك الذكر والتفكير من جنس العمل، فلا تقعد بدون أن تلهج بذكر الله حتى في استراحتك أو أثناء جلساتك مع العائلة والأصدقاء أو خلال الانتظار لموعد أو التحرك لمكان، إنما العمر دقائق معدودة رأس مالك فيها عملك، وتأمل همة الإمام ابن عقيل الحنبلي رحمه الله وهو يقول: "إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة وبصري عن مطالعة أعملت فكري في حال راحتي وأنا مستطرح".

ولكل عامل استراحة مقاتل، وإني لأغبط العامل الذي يستثمر وقت استراحته أيضا في عمل، فيذكر الله مطمئن الفؤاد أو يستمع لتلاوة يخشع لها القلب أو يتفكر في ملكوت السموات والأرض، فما أروعها من استراحات تدرّ على صاحبها الحسنات وتديم وصاله بخالقه وتشحذ همته باستمرار، فيصبح المؤمن كالنحلة والنحلة.

والوقت الذي تسترجع فيه أنفاسك، ليس ضائعا، بل من لبنات العمل.

ومع أن للراحة متعة، إلا أن متعة العمل لا تُبارى، والإنسان المنتج ينعم بنعيم العمل ونعيم الراحة بعد التعب.. وحدهم أصحاب البطالة من يعانون التعاسة.. ولا يمكن لمن حمل هم الإسلام أن يعرف بطالة... ثم إن البطالة بطالة الروح!

ومن أروع ما قرأت لابن حزم رحمه الله، قوله: "طرُدْ الهَمَّ ليس له إلا طريق واحد، وهو العملُ لله تعالى، وما عدا هذا فضلالٌ وسُخْفٌ".

ويدخل في مفهوم البطالة أن يمتلك المرء رصيذاً تنظيرياً محترماً ثم لا ينعكس جهده في التنظير على ميدان التطبيق، ولا شك أن الإدمان على الثثرة دون إنجازات ميدانية مصيبة تستوجب العزاء، لأن المقياس الحقيقي لصدق الطلب هو العمل. قال الله تعالى (يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (الصف: 2، 3).

يقول البشير الإبراهيمي رحمه الله: "إن زمانكم بطل، فقاتلوه بالبطولة لا بالبطالة، وإن البطل هو الذي يتعب ليستريح غيره".

وقصص البطولة، تنسيك الهم والغم ولا تنفك تبثك السعادة والشوق، فاجعل لكل يوم من أيامك جرعة بطولة، فإنما هي الترياق في زمن الوهن، وكم من الأبطال كانت بدايتهم قصة بطولة حكمتها الجدات.

والبطولة، حلم عزيز ومطلب عظيم، تشرق لها الأنفوس انبهاراً فتستطعم الحياة. ألم تر كيف تفعل قصة بطولة في إنسان، وكيف تفعل في أمة! وهل يتوارث الأجيال إلا البطولات! ثم الفخر كل الفخر أن أمة الإسلام أسبق الأمم بطولة! فهي تسري في شرايين هذه الأمة مهما حاولوا إضعافها وقهرها. تتفجر من جديد كالنبع!

يقول الأديب الفقيه علي الطنطاوي رحمه الله في الذكريات: "إن الإسلام صبَّ البطولة صبباً في أعصاب المسلمين، وأجراها في دمايهم، فمهما حاقت بهم الشدائد وتوالت المحن، فلن تتبدل طبيعة البطولة فيهم".

ويقول البشير الإبراهيمي رحمه الله في ذلك: "اطلبوا معاني البطولة والتضحية والإيثار من سير أبطالكم، تجددوا في كل مفخرة إماماً".

والنفكر وقود الإلهام، ولا شك أن القراءة أحد أهم روافد التفكير، ولا بد لعالي الهمة من وجبة قراءة بشكل يومي متفكراً، قال أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله في صيد الخاطر: "وإني أخبر عن حالي، ما أشبع من مطالعة الكتب، وإذا رأيت كتاباً لم أره، فكأني وقعت على كنز، ولقد نظرت في ثبوت الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية، فإذا به يحتوي على نحو

سنة آلاف مجلد، وفي ثبت كتب أبي حنيفة وكتب الحميدي، وكتب شيخنا عبد الوهاب ابن ناصر، وكتب أبي مُجَدِّد بن مُجَدِّد بن الحشاش وكانت أحمالاً، وغير ذلك من كل كتاب أقدر عليه ، ولو قلت: إني طالعت عشرين ألف مجلد كان أكثر وأنا بعد في الطلب، فاستفدت بالنظر فيها من ملاحظة سير القوم وقدر همهم وحفظهم وعباداتهم وغرائب علومهم ما لا يعرفه من لم يطالع. فصرت أستزري ما الناس فيه وأحتقر همم الطلاب والله الحمد". فتأمل.

ويأتي الإلهام من قوة الملاحظة والتفكير، من سعة الاطلاع والتجول، من مخالطة الملهمين، من بعد النظر وانفراج الأفق، من المحبة للخير والسعي به وله، من قوة العزيمة وسمو الهمة، من التاريخ والحاضر والمستقبل، من الصدق والإخلاص والتوفيق الرباني، من القلب المسابق لمراتب السعادة والفوز العظيم.

ومن علو الهمة العناية بالذوق، قال محمود شاكر: "حسن التذوق يعني سلامة العقل والنفس والقلب من الآفات، فهو لبّ الحضارة وقوامها، وقوام الإنسان العاقل المدرك الذي تقوم به الحضارة".

وقال أيضا: "إلْفُ القبح متلفٌ للإحساس والعقل".

قلت: وإلْفُ الحسن ملهمٌ للإحساس والعقل.

كما أن شعور المسابقة في سبيل الله سبب آخر لتحفيز الهمة، وتأكد أن هناك من يسابقك في الله لا يقبل أن يكون المتأخر وإن لم تره عينك، فسلعة الله غالية والمسابقون للفوز بها في كل زمان ومكان!

قال مُجَدِّد بن علي الأسلمي: "قمت ليلة سَحْرًا لآخذ النوبة على ابن الأخرم فوجدت قد سبقني ثلاثون قارئاً ولم تدركني النوبة إلى العصر"، فله در عِظَم الهمة.

إذا كنت في أمر مروم فلا تقنع بما دون النجوم

كما علينا أن نرفع من سقف أهدافنا لنستشعر التقصير والمسؤولية، فكلما غلب شعور الاستياء ومناشدة الأفضل، شعور الرضا عن النفس. كلما كان العطاء متألِّفاً، أما رأيت المبشرين بالجنة يكذبون ويسابقون مع أنهم ضمنوا الفوز، وقبلهم النبي المعلم ﷺ يقول: "أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً". وما الشكر إلا بعبادة وعمل.

وقال رسول الله ﷺ: "أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ" وهذا الحديث سر عظيم من أسرار النجاح. سواء على مستوى صلة المرء بالله سبحانه أو على مستوى ثقة المرء بنفسه.

والتجارب تؤكد أن الوصول إلى ذروة النجاح يسبقه مرحلة المداومة على الأعمال وإن قلت.

فروح المداومة هي بالفعل الإنجاز.

والاستمرارية أول أركان النجاح، مهما بلغ العمل من إتقان في بداياته فإن نجاحه الحقيقي يكمن في تجاوز عقبة الانقطاع، والاستمرارية بغض النظر عن تفاوت درجات الإتقان، تعد بجد ذاتها نجاحاً.

ثم نعم، رائعة هي مواقف النجاح وتحقيق الأماني والإنجازات، لكن الأروع لحظة سجود مخلص، تجمع كل مشاهد الإيمان والتوحيد والامتنان والحمد.

تتسابق الأرواح المؤمنة لمثل تلك المواقف، يعتربها الشوق كل الشوق في مراحل الدنيا فكيف بمراحل الآخرة! (وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا).

وإنه وبالتجربة قد ثبت أن أغلب الوقت تهدره زيارات كثيرة للأقارب والأصدقاء، فلا بد من ضبط هذا الوقت وتقنين الزيارات بما لا يضيع جهدك وإقبالك ولا يفسد صلاتك وعلاقاتك في سبيل الله.

واعقل هذه الوصية فهي سر من أهم أسرار الإنجاز: إياك وحيل التسويف، بل اجعل منهجك الانتهاء من العمل في حينه، كما قال الشاعر:

ولا أؤخر شغل اليوم عن كسلٍ إلى غدٍ إن يوم العاجزين غدٌ

وليتك تشتري الوقت، فتدخره لعمل آخر، وإن في استثمار الأوقات فقه لا يجب أن يفوت عظيم الهمة.

يقول ابن الجوزي رحمه الله: " رأيتُ عجوزًا تتوضأ قبل الظهر بدقائق فسألتها: هل أدن؟ فقالت: أنا أذهب إلى الله قبل أن يُناديني " فتأمل همة العجوز!

ثم إنه طبيعي جدًا أن تمر بفترات فتور وكسل، قال رسول الله ﷺ: " إِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةً وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ". (رواه أحمد). والشرة: النشاط والهمة، والفترة: الضعف والانكسار. لكن الغير طبيعي أن تطول وتبقى، فلا تسمح لنفسك بالقعود مطولاً، وتأمل قول الصاحب بن عباد: "إن الراحة حيث تعب الكرام أودع لكنها أوضع والقعود حيث قام الكرام أسعل لكنه أسفل"، وقال الشاعر:

كأن التواني أنكح العجز بنته وساق إليها حين أنكحها مهرا
فراشاً وطيباً ثم قال له اتكئ فقُصراً كما لا شك أن تلدا فقرا

والذكي من ينتهز فرصة النشاط والهمة فينجز أقصى ما يمكن إنجازه حتى إذا استرخى تذوق جمال العمل واشتاق لمزيد من البذل وإن كان في تسلية ومرح.

ومن جمال العمل في الإسلام أن مفهومه تراكمي تكاملي، كل عمل هو بمثابة رصيد وذخيرة لعمل آخر، ودافع لمزيد عمل، ومكمل لعمل الآخر، وحافظ لثمرات الآخرين.

فأهدافه أهداف أمة ومنظومة، تتوزع بركاتها على كل فرد فيها. وكل ما يقدمه هذا الفرد يعود عليه بأضعاف ما قدم. ذلك حين يكون الحكم لله وحده سبحانه.

وبقدر صدق الإقبال تكون الفتوحات.

وإن لعلو الهمة علامات منها كثرة الشكوى من قصر الوقت والتألم لحال المسلمين في كل بلد، والتأسف للحظات التقصير فيما مضى، والتوجع لوقت يُهدر أمام عينه، والخوف من القعود وسنة الاستبدال، وخشية الانقطاع عن العمل لطارئ يطرأ، وجمع الأسباب لمواصلة البذل مهما اشتدت الخطوب، ثم النضوج في القول والعمل، والثبات والصبر أمام الصدمات، والحزم عند الملمات وما يفسد العمل. إضافة إلى بث اليقين عند ضعف الناس وتحريض المؤمنين عند اشتداد البأس. كل ذلك والقلب وجل يرجو رحمة الله وقبوله، قال الشاعر:

لكل إلى شأو العُلا حركات ولكن قليل في الرجال الثبات

ومن المفترض أن من جرّب الحرمان أضحى أكثر قدرة على استثمار اللحظات والمسابقة بالخيرات، وأنه قد أدرك تمام الإدراك أهمية العمل لأن لحظات الحرمان هي الأقسى على الإطلاق. فكلما دعتك نفسك للكسل والخمول تذكر تلك اللحظات في وقت يتقدم فيه آخرون.

ولأننا جُبلنا على الفقد، فلا بد أن نكون أشد الناس حرصًا على الحفظ، حفظ كل أمانة وجمال وخير.

ثم تذكر أن الراحة جُعلت فقط محطة بين محطات الإنجاز وأن هناك دائمًا بدايات جديدة لأصحاب الهمم مهما اشتدت الخطوب وبلغ الفقد منتهاه، فلا نهاية حقيقية إلا الموت.

ومما يقع فيه صاحب الهمة العالية أن تتداخل عليه الأعمال وتزدحم، وهنا عليه بفقته الأولويات وحسن إدارة الوقت والاستعانة بما يعينه على إتمام المهمات التي تثقل برنامجه.

ولا تسأل الله أبدًا أن يخفف عنك الأعمال والمهام حين تشتد عليك، بل اسأله بإلحاح أن يبارك لك في وقتك وجهدك لإتمامها كلها بإتقان مرددًا اللهم اجعلنا من (أولي الأيدي والأبصار).

كما أن الإحاطة بالاحتمالات الممكنة وغير الممكنة، رجاحة عقل وحكمة قيادية، والفرق بين القيادات، يكمن في القدرة على سبر أغوار الاحتمالات وإحصائها، فمن فاته احتمال واحد خسر الكثير من فرص النجاح، ولذلك فأول النصر حسن التخطيط وبعده الرؤية والاستشارة. وهو منهج يمشي عليه صاحب الهمة العالية.

واعلم أن من أسباب التعثر والإخفاق، كثرة التردد عند الانطلاق، فلا بد لكل عزم حسن توكل وصفاء. ولا تتراجع في طريق خير أبدًا، إلا أن يأتيك من الله برهان يبطله. وكما أن العزيمة رأس مال، فإن الوقت رأس مال آخر.

إذا كنتَ ذا رأيٍ فكن ذا عزيمةٍ فإن فسادَ الرأي أن تترددا

وما العجزُ إلا أن تُشاوِرَ عاجزًا وما الحزمُ إلا أن تهَمَ فتفعل

فمن وجد في نفسه همة لخير فليقبل بلا تأخير، بل يعجل بالعمل قبل أن يقطع طريقه التسوية والتقصير وتخذيل الشياطين، من الجن والإنس. وما ندم من أقبل على خير أبدًا.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "لكل شيء شرف، وشرف المعروف تعجيله".

ثم إن المؤمن عزيز النفس يبصر فلتات التردد من صاحب المعروف فتقع في نفسه جبلاً ثقيلاً من الأذى. ولا يستوي معروف مسابق ومتردد، فقد جعل الله لكل عطاء جزاءً. وبذلك تمايز الصادقون في مراتب الجنة، وبذلك تباين وقع صنيعهم في القلوب.

وصناعة المعروف، فنٌ ومرتعةٌ وعاونٌ وحصنٌ وأجرٌ وبركةٌ وقدوةٌ ووقودٌ وأبوابٌ وفصول.

وإن المسلم الذي لم يتوشح درع الصدق ويمتشق سيف العزيمة ويمتطي خيل المسابقة لن يدرك لذة الحياة ولن تنتعش روحه بنشوة النجاح ولن يكتب اسمه مع الخالدين.

فعش البطولة بداخلك تراها تنساب مع عروق دمك لتحيي أمة كادت أن تفتك بها طعنات خناجر الغدر والخيانة، وما البطولة إلا إنقاذ الجريح مع آخر رمق. وتلك طريق أصحاب العزائم.

يقول البشير الإبراهيمي رحمه الله في آثاره: "العزيمةُ أختُ العقيدة، وهما كجناحي الطائر للرجال وللأعمال، والعقيدةُ بلا عزيمةٍ باطلةٌ، والعزيمةُ بلا عقيدةٍ عاطلةٌ".

ولا تلتفت لكثرة المثبتين أو المهوَّنين من جدوى تفانيك، فطريق المجد لا يناله الكسول ولا يدرك قيمته العاطلون، قال ابن نباتة السعدي:

أعاذلتي على إتعاب نفسي ورعيي في الدجى روض السهادِ
إذا شام الفتى برق المعالي فأهون فائت طيب الرقادِ

وقال آخر:

ومن تعود في الإخفاق خاطره خال النجاح على الأهداف إخفاقاً

ولا تلقي باللوم على أسرتك التي تتهمها بالتقصير في تقديم أسباب التفوق والنجاح لك منذ البداية. إنما أرنا أنت مهارتك في صناعة النجاح مستنداً لتجربتك التي علمتك على

الأقل أين الخلل وأين النقص فتستفيد من ذلك في تفادي ذات الأخطاء، فلا حجة لمن أبصر مكنم الخطأ إلا أن يحقق التغيير. كفانا تملصاً!

وكن عصامياً لا عظامياً، فمن روائع مقولات الإمام الشافعي رحمه الله: "ما حكَّ جلدك مثله ظفرك فَتَوَلَّ أَنْتَ جَمِيعَ أَمْرِكَ".

فإن لم تسهر بنفسك على أعمالك لا تتوقع من غيرك أن يسهر عليها، وكذلك في كل ميادين العمل، لا ينفك حضورك شرطاً أساسياً لتحقيق طموحاتك.

ثم القوة كل القوة يكتسبها المرء حين ينتقل من مرحلة الشكوى إلى مرحلة السعي، ويودع مرحلة التظلم والتبرير مسارعاً إلى مرحلة البحث والمساابقة، ليس لدينا الوقت لنضيعه في عد مشاكلنا بل يجب علينا استثمار كل لحظة في العمل على تغيير حالنا، بمثل هذه المفاهيم نهضت أمم وقامت نفوس تعثرت... وشتان بين قول وعمل.

ولابد أن يرافق علو الهمة الصبر على الإنجاز فالحماسة المذمومة والتذمر والاستعجال يُفسد جمال الإقبال.

وإياك أن تفقد ذخيرة الصبر، فلا يزال الصبر عدة حاسمة لدى الموفقين والفائزين.

ولم أر أتعس من تعثر المستعجلين. يكون الهدف أمامهم ينتظرهم، ويضيعونه لاستعجالهم. وإن للصبر لبركات يلتمسها العبد في أي لحظة على امتداد مسيرته.

كما لابد من أعداء جن وأنس لقطع طريق عالي الهمة فليتحصن بالذكر وليتقي شر الناس بحسن التوكل على ربه واليقظة.

وإذا افتقدت البركة في عمل تسعى له، فراجع أمرين اثنين: الأول: نيتك، فإن شابها دخن فلا تلومن إلا نفسك، والثاني: الأسس التي بنيت عليها العمل، فإن دخلها خبث أو ظلم أو حرام، فلا تشتكي حرمان البركة.

وأصحاب المهارات المتعددة لا يعرفون السأم كونهم يتنقلون من عمل لآخر فينجزون بشغف، لذلك العناية بطرق أبواب الخير المختلفة يخفف من مشقة المسير، واستذكر أيها المسابق في كل حين "اللهم اجعلنا من أولي الأيدي والأبصار المصطفين الأخيار".

واعلم أن النفوس المسابقة الملهمة تبصر تفاصيل الجمال في كل مشهد وإن كان مظلمًا، بفراصة عجيبة تستخرج الحلول من قلب الأزمات والخطوب، تصنع من الضعف قوة ومن الفرقة وحدة ومن التراجع تقدمًا، تلك النفوس هي التي تبحث عن مكونات النجاح لا تبالى بالعقبات قد ارتوت يقينًا، هي سر من أسرار القيادة الفذة.

وتأكد إن أكبر خطر قد يهدم بنيان عظيم الهمة هو الحسد، فلا تسمح له بالتسلل إليك وإن من مداخله، مراقبة الأقران والعاملين وسوء الظن بهم وإلقاء السمع للنمام والمفسد. ولتسأل الله من فضله وتتعوذ من الوسواس الخناس، فالحسد سوء أدب مع الله، واعتراض على أمر الله، قال العلماء: "الأناية تُولِّدُ الحسدَ، والحسدُ يُولِّدُ البغضاءَ، والبغضاءُ تُولِّدُ الاختلافَ، والاختلافُ يُولِّدُ الفرقةَ، والفرقةُ تُولِّدُ الضَّعفَ، والضَّعفُ يُولِّدُ الدُّلَّ، والدُّلُّ يُولِّدُ هلاكَ الأمةِ وزوالَ النِّعمةِ وحلولَ النِّقمةِ".

ثم إن أي مشروع تنطلق فيه في حياتك لحظوظ نفسك: حسدًا كان أو أناية أو مكيدة أو جشعًا أو غيره من أمراض، مهما سترته بلبوس الدين والعقيدة لن تنفك تفشل. والأيام

كفيلة بفضح نواياك مهما بذلت من حسن المقال والدعاية. أتعلم لماذا؟ لأن مفتاح النجاح "إنما الأعمال بالنيات"، فمن ناشد الازدهار فالتقوى والإخلاص.

وإن هلك صالح فمن تزكية النفس، وإن انتكس عالم فمن الحسد، وإن هُزم مجاهد فمن الغرور. ولكل صعود تحدي، والعبرة في الخواتيم، فإياك أن تطمئن وتحدث بلسان الناجي، فكلنا غرقى ما لم يتلقفنا الله برحمة من عنده.

أسباب دنو الهمة

إن لانحطاط الهمة ودنوها الأسباب العديدة، في مقدمتها الوهن كما نبهنا له رسول الله ﷺ في الحديث، وعرفه بحب الدنيا وكرهية الموت. فقط أولئك الذين صغرت في أعينهم الدنيا كان بذلمهم عظيمًا وتجاوزهم للعقبات مبهرًا. لا يرهبهم عدو ولا يكسر همتهم نقص.

ومن أسباب دنو الهمة الانغماس في المباحات والملذات والمرح والمزاح، قال ﷺ في الحديث الصحيح: "نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ".

كذلك تدنو الهمة بالاستسلام للعجز والكسل، والإرادة علاج حاسم لذلك، قال تعالى (وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) (التوبة: 46). فهي الإرادة التي تجعلك تنطلق من جديد بعزم من حديد مهما بلغ حجم خسائك، هي الإرادة التي تحتاجها الأمة للنهوض. إرادة لا تعرف اليأس ولا الإحباط، إرادة بناء ومثابرة واستدراك، زادها الاحتساب واليقين وحسن التوكل على الله والإصلاح.

وأكبر عدو للمسلم الغفلة إن تمادت، فالغفلة سنة لكن اليقظة حق وواجب، واستذكار الموت علاج، قال مُجَدُّ بن يونس رحمه الله: "كُنَّا عِنْدَ زَهَيْرِ الْبَابِيِّ رَحِمَهُ اللهُ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: تَوْصِي بِشَيْءٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ أَحْذَرُ لَا يَأْخُذُكَ اللهُ وَأَنْتَ عَلَى غَفْلَةٍ".

وأما التسويف فهو الموت البطيء للهمة، لذلك شددنا على ضرورة المبادرة للعمل في حينه، وأولئك الذين يبصرون أمام قائمة أهدافهم محطة الموت الأكيدة، لا يعرفون الكسل أو التسويف، بل المسارعة بالخيرات حتى إذا ما حان موعد الرحيل، يعتذرون لله بكونهم استنفذوا كل جهد لهم في سبيل مرضاته وترك الأثر الطيب. فاجعل استذكار لحظة الموت محرضاً لك في كل وقت.

ولولا الحزم لما كان الإنجاز! فما رأيت مثل الحزم للإنجاز. وما رأيت مثل استشعار الأمانة للحزم.

ولولا الحزم لما كان الإنجاز!

ثم تخير صحبتك، فإن صاحب دليل على علو همتك، وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: "أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَجَلِيسِ السُّوءِ: كَحَامِلِ الْمِسْكِ، وَنَافِخِ الْكَبِيرِ، فَحَامِلِ الْمِسْكِ إِذَا مَآ أَنْ يُحْذِيكَ، وَإِذَا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِذَا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخِ الْكَبِيرِ إِذَا مَآ أَنْ يَحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِذَا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا مُنْتِنَةً"³⁰.

وقال ﷺ: "إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلْحَيْرِ مَغَالِيقَ لِلشَّرِّ، وَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلشَّرِّ مَغَالِيقَ لِلْحَيْرِ، فَطُوبَى لِمَنْ جَعَلَ اللهُ مَفَاتِيحَ الْحَيْرِ عَلَى يَدَيْهِ، وَوَيْلٌ لِمَنْ جَعَلَ اللهُ مَفَاتِيحَ الشَّرِّ عَلَى يَدَيْهِ"³¹.

(30) متفق عليه.

(31) سنن ابن ماجه والسنة؛ لابن أبي عاصم.

لقد فقه الصحابة رضي الله عنهم جوهر الإسلام وسر صلابة المجتمع الإسلامي كالبنيان المرصوص وما يحفظ سلامة صفوف المسلمين في كل ساحات العمل، فعبد الله بن رواحة رضي الله عنه يقول لأبي الدرداء رضي الله عنه: "هيا بنا نؤمن ساعة، فإن القلب أسرع تقلباً من القدر إذا استجمعت غلياناً" ومعاذ بن جبل رضي الله عنه يقول لصاحبه: "اجلس بنا نؤمن ساعة".

فإياك وصحبة الكسلاء، فهي مجلبة للهم والغم وضياح الهمة والعمر، وعليك بصحبة أصحاب الهمم، فإن رفقتهم كلها خير، إن سابقتهم كسبت أجراً وارتقيت منزلة وإن خالطتهم انتفعت ببركات هممهم قال الله تعالى (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) (الكهف: 28).

فوطن نفسك مجالس العمل، وشحذ الهمم والأحاديث المباشرة والنصائح الملهمة والمحفزة، ذلك أن تأثيرها عظيم في عطاء النفس، فكلما أسلم المرء نفسه لمجالس التخذيل والهزيمة والاستسلام واليأس والقنوط كلما انعكس ذلك على نفسيته وأدائه وهذا أمر طبيعي. قال بعض السلف: "شتان بين أقوامٍ موتى تحيا القلوبُ بذكرهم، وبين أقوامٍ أحياءٍ تموت القلوبُ بمخالطتهم"³².

كذلك العشق يصنف من أسباب دنو الهمة، حين يتملك صاحبه ويغلبه، فيشغل كل عقله وخياله وهمته بل قد يعود عليه بالانكسار والهم والغم والمرض.

ويدخل أيضا في دنو الهمة، اللهث خلف الكماليات وتلبية مطالب الأسرة الثانوية والتفكير المزمع في مستقبل الأبناء والغفلة عن سنة التوكل وحسن الظن بالله. قال صلى الله عليه وسلم:

(³²) الرسالة التبوكية ص74.

"من كانت همّة الآخرة، جمع الله له شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا راغمة، ومن كانت همّة الدنيا، فرّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب الله له"³³.

وتأمل قول ابن تيمية رحمه الله: "الذين يقتصدون في المآكل نعيمهم بها أكثر من نعيم المسرفين، فالمسرفون أدمنوها وألفوها فلا يبقى لها كبير لذة، وتكثر أمراضهم بسببها". وهذه حقيقة، فاللذة بعد حرمان أو نقص لا تقاس بلذة المعتاد والمستكثر، أما الأمراض، فتزيد مع كثرة الأكل والإسراف.

كما تدنو الهمة بالانخراط في برامج تهدم الإنسان وتشتت همته وتشغله بسفاسف الأمور عن معاليها.

وتدنو عند اتباع البدع والفرق الضالة فيتأثر المرء بمناهجهم المنحرفة. قال ابن القيم في إغاثة اللفهان: "لما كان البدن المريض يُؤذيه ما لا يُؤذي الصحيح من يسير الحرّ والبرد والحركة ونحو ذلك، فكذلك القلب إذا كان فيه مرضٌ آذاه أدنى شيء من الشُّبْهَة أو الشَّهْوَة، حيث لا يقدر على دَفْعِهما إذا وَرَدَا عليه، والقلب الصحيح القوي يَطْرُقُه أضعافُ ذلك وهو يَدْفَعُه بِقُوَّتِهِ وَصِحَّتِهِ".

ولا شك أن الوسط المحبب والمثبب يدعو لدنو الهمة وكم من العطاء والجمال ستثمره نفسك بمجرد أن تزرعها في الوسط المناسب فكلما تعثرت خطاك، غير أرضيتك ولا تقبّع في ذات المكان فتصاب بالجمود والشتات والعاقل لا يستسلم لواقع محبط ولا لبيئة كسولة بل هو

(³³) في سلسلة الأحاديث الصحيحة.

كالحلقة تارة وكالخنقة أخرى، همته تواقفة مرنة تتكيف مع جميع الظروف وتنشد الحلول لا تقبل الرقود.

ثم كما قال إبراهيم السكران فإن كثرة متابعة أخبار المنكرات، يكسر الهمة لمعالي منازل الإيمان والتمسك، وقد قال الله (يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۗ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلٍّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ) (المائدة:105) وفي ذلك قال الحسن رحمه الله: كثرة النظر إلى الباطل، تُذهب بمعرفة الحق من القلب³⁴.

ثم حدثني عن دنو الهمة أحدثك عن الذين يستمعون القول فيتبعون أضعفه أو أقبحه. يدخل في ذلك الانهزام للغرب ودعوات الخضوع لأعداء الإسلام، على عكس ما كان عليه السلف الصالح، قال إبراهيم السكران فرج الله عنه: "بُعث النبي ﷺ بين أربع حضارات: الرومانية والفارسية والهندية والصينية، فلم يُخرج تلاميذ منكسرين للآخر، بل أخرج شامخين قلبوا العالم .. بعد سنين قلائل من بعثته وصل الغافقي (بواتيه) على مشارف باريس!".

ومن تدبر التاريخ وأخبار السابقين سيشاهد الإنسان المؤمن كيف يتحدى الظروف والعقبات ويصنع الأجداد بعزة لا تقهر، سيجد فيه ما نفتقده بشدة اليوم، تلك الحرقرة التي لا تسمح لمسلم أن يذلّ أو يخضع، رغم حجم النوازل التي توالى على العالم الإسلامي كانت تشرق شمس النجاح حتمًا في زاوية ما ويلمع نجم!

أما الانهزامية فداء فتك بالجماهير بطريقة تستحق الرصد والدراسة. وما يزيد الطين بلة أن المصاب بهذا الداء غالبًا ما يعيب تعثر نهضة الأمة! وفي الواقع فإن فاقده الشيء لا يعطيه، ففاقد العزة لا يحقق رفعة، وفاقد الثقة بالنفس لا يصنع مجددًا، وفاقد المعرفة بمقومات القوة في أمته ونفسه لا يصل لأي إنجاز.

(34) محاسن النثر والنظم أو الكتابة والشعر ص: 40.

والانهزامية على قسمين:

- قسم ينبهر بالغرب ويغفل عن إنجازات أمته.
 - وقسم ينبهر بالغرب ويحتقر إنجازات أمته.
- الأول تنتظر منه خيراً، والثاني كبرّ عليه أربعاً.

وما أسوأ الانهزامية!

جلد للذات في كل وقت، واستحقار لها ولأدنى إنجاز تقدمه، وتعظيم وتهويل للغرب بحاسنه ومساوئه، والإسقاط والطعن لمجرد نقد يطال الغرب، ثم يعيب المنهزم على أمته تعثر نهضتها ويضرب لها أمثال الغرب!
لا يمكن لأمة منهزمة نفسياً أمام الغرب المتصدر أن تقوم وكذلك الفرد، وهذه من تداعيات سلطة الثقافة الغالبة.

ثم شتان بين من يرقب فجر النصر مستنداً لعلم وعمل وبين من يتوجّس خيفة من كل حدث فلا يقدر على التفكير المستقل ولا العمل.
إن تحرير العقول من الانهزامية والتبعية والاعتباطية أول وسائل النهوض، وسنشهد تلك الوجوه مكفهرة حين ينهار الاقتصاد وتراجع أمريكا لوكرها وتتفتت القوى الكبرى حينها طوبى لمن أعد.
قال رسول الله - ﷺ - في الحديث الصحيح: "بشر هذه الأمة بالسنة والدين والرفعة والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب".

ومن أسباب دنو الهمة الوقوع في شرك اليأس بسبب التضيق والأذى الذي يلاقيه العاملون في سبيل الله والناجحون في بلاد المسلمين، ويقع في هذا اليأس تحديداً الشخصيات شديدة التوجس. ذلك لجهلها حقيقة أن الألم الذي يعيشه المؤمن العامل في سبيل الله هو

واقع بفعل سنة التدافع، وما هو إلا سر من أسرار القوة، يقول في ذلك محمود شاعر: "والألم وحده هو الذي يستطيع أن يصقل النفس الإنسانية صَقْلًا رَائِعًا"، لذلك فهذا الألم سبب في صناعة الهمة بالأصل لا دنوها.

ويقول علي الطنطاوي في فصول اجتماعية: "الرُّجولَةُ لا تُظهِرُ معانيها ولا تعملُ عملها إلا إذا حَاقَتْ بها الشَّدائدُ واكتنفتها الآلامُ".

ويقول الرافعي في أوراق الورد: "ترفعنا الهموم والآلام، لأن عواطف الحزن والشقاء لا تكون إلا من سمو، وهي لا بد أن تكون لأنها وحدها الحارسة فينا لإنسانيتنا".

والألم يصقل الإنسان، والتجارب تنحت ثنايا تفكيره وتحوله لمصنع إنسانية، لكن الإيمان يُقوم هذه الإنسانية لأرفع مراتب الإنتاج والخيرية. والإنسان بدون إيمان يتحول لمجرد آلة دمار تنشد الدنية.

ثم ما النفس إلى جملة آماني وأحلام، وكلمات أحزان تراكمت في زوايا القلب، وتعابير إرادة الخير لا يوصلها لبر الإنجاز والأمان إلا معاني الإيمان العامر واليقين الغلاب. وأما فواصل الشر فعقبات في طريق المؤمنين نستعين بالله عليها صبراً ومجاهدةً.

ونفس الإنسان كتاب وفصول، ولذلك كان الاختلاف والانسجام، لكنها بدون تقوى نزعات شر لا تفي، ولا تنتظم هذه النفس إلا بالإيمان ومنظومة الإسلام، ذلك أن تركيبها معقدة تتجاوزها التناقضات وتشتت مكوناتها الفوضى.

لكن الاستقامة سبيل النجاة والسعادة الأبدية، قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي).

واعلم أن الكسل والجبن والجهل والتسويق والتفرق وفقدان البوصلة ودنو الهمة والاستهانة بالذنب والظلم وما يحرم العبد، لا يخوّل صاحبه الدخول في شرف صناعة النصر والمجد، لذلك فمن أصيب بمثل هذه الأمراض لا ينتظر مه إلا التوبة والاستدراك، وإلا فإن فقد الشيء لا يعطيه. ونور الله لا يهدى لمن ياباه.

وتصل الهمة لأدنى مراتبها بالاستغناء عن الدعاء قال صلى الله عليه وسلم: " أعجز الناس من عجز عن الدعاء".³⁵

فيا أيها المثابر لمراتب النجاح، خذها قاعدة في هذه الحياة، إن لم تقف عند باب الابتهاال وسؤال مولاك التوفيق والسداد، فلا تحلم بأن تطأ قدمك ثريا الإنجاز الباهر.

مسؤولية صناعة الهمة لدى الطفل

إن من علو الهمة ودلالاتها صناعة الهمة لدى الطفل الصغير، قال أبو حامد الغزالي رحمه الله: "والصبي أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة، فإن عوّد الخير وعلمه نشأ عليه، وسعد في الدنيا والآخرة، وإن عوّد الشر، وأهمّل إهمال البهائم شقي وهلك.. وصيانتته بأن يؤدّبّه، ويهذبه، ويعلمه محاسن الأخلاق".

وقال ابن خلدون رحمه الله: "التعليم في الصغر أشد رسوخًا، وهو أصل لما بعد".

وإن صناعة الهمة لدى الطفل الصغير تستوجب صناعة قيادات، ومن أساليب صناعة هذه القيادات، تلقين الطفل الصغير معالم الصراع بين الحق والباطل مبكرًا، وتقديم القدوة له بمعايشة مواقف النصر للإسلام والمسلمين، فمفعول ذلك عجيب في بناء شعور المسؤولية ونضوج الفكرة واشتعال الهمة.

وكلما عايش الطفل الواقع بيقين النصر كلما كان مستقبله أفضل.

(35) في سلسلة الأحاديث الصحيحة.

كما أننا نشاهد كثيراً عند الخطأ سيلاً من الذم لفاعله وللفاعل بحد ذاته لكن نادراً ما نشاهد الأمر بتصحيح الخطأ فوراً، وفق مبدأ الحسنات يذهبن السيئات.

فمشكلة كبيرة تتجلى حين يغلب الغضب المرئي فينسى دوره في الإصلاح ليتحول لمجرد حائق يفرغ شحنات غضبه في العقاب، وهذا سبب هدم كبير في المجتمع وسبب ضعفه.

لأن العقاب الكل يتقنه، لكن الإصلاح قليل جداً من يحسنه.

لذلك لا تركز أيها المرئي كثيراً على ذم الفعل بقدر التركيز على ضرورة تصحيحه، فهذه المنهجية في التعامل مع الأخطاء مع الصغار والكبار منهج تربوي بناء، يرسخ مفهوم الإصلاح أكثر من العقاب ويتجنب التقرير لأجل التقرير.

نحن بحاجة لصناعة المصلحين ولا يكون ذلك إلا بإشعال روح المبادرة والمساعدة للتصحيح بدل التدمير.

وما أجمل مشهد الطفل يسارع لاستدراك خطأه وتصحيحه إنه أفضل من كل مشاهد العقاب.

وإن تعجب فاعجب للعائلة المسلمة التي تربي فلذات أكبادها على بطولات الأفلام الغربية الكاذبة وبرامج الفيديو الهدامة ومجلات التفاهة، بينما لا يعرف الطفل قصص الأنبياء وبطولات الصحابة والفاتحين ولا يدرك معنى صناعة الهمة ولا الفوز بالجنة!

فحين يتربي طفل على ألعاب الفيديو وأفلام هوليوود ويتعلق بأغاني المطربين الغربيين، وبأخبار الفسق والمجون الغربي ثم يسلم منصب قيادة دولة وخزائنها ويجد بعضهم يتسابق لتقبيل يده وتنفيذ أمره، لا تحدثني بعدها عن جنون العظمة، والفساد في أرض هي مهد الإسلام. باختصار هذا حصاد تربية غربية فاسدة!

ولا تقارن أجيال تربت على الرماية والسباحة والفروسية بأجيال تربت على ألعاب الفيديو والأفلام والأغاني التفاهة!

إن الوسط الذي يتربى فيه النشء، هو الحضان الأول الذي تتفجر فيه العبقريّة، فكيف بمن يقبرها منذ البداية، فيصنع الفشل بدل النماذج الراقية لصناعة الإنسان والهمة.

وما أجمل الاستدراك!

وكل نفس تواقّة بحاجة لجرعة بطولة، فلذلك مفعول يدوم معه الإلهام والإقبال، ولذلك كان أسلافنا يحرصون على توارث قصص البطولة في التراث الشعبي الذي يتردد على مسامع الأطفال منذ سن صغيرة، والعكس كارثة، فحين تفتقد الأجيال ذلك وتستقبل طموحاتها وهمها مستنقعات الانحلال والرذيلة فلا تحدثني عن مستقبل! فبحسبما نربي الجيل الذي بيننا نرسم معالم مستقبلنا. إنها أمانة.

وتتعطش الجماهير للبطولة لأنها سليلة أجيال صنعت البطولة صناعة وسطرت المجد تسطيراً، وتوارثت العهد والإباء على مر العصور والأجيال، منذ سطعت شمس الإسلام، والدول تجتو أمام عظمة دولة النبي ﷺ وخلفائه وتابعيه. فاسقوا الهمم بقصص البطولة ولقنوها فنون صناعتها، فإن ما بني بالبطولة لا يعود إلا بها.

ثم إن أقل ما ينتظره أبناءك منك، ألا تكرر معهم أخطاء والديك معك. وكذلك في كل العلاقات، عامل غيرك كما تحب أن يُعاملك الغير. وقبل أن تلقي باللوم على والديك أو تبرر تقصيرك بسرد قائمة المعوّقات، استدرك الجيل الذي بين يديك، فمن المؤسف أن تكون مربيّاً لأطفال يفتقدون نفس ما كنت تفتقده لتحقيق السبق.

وإن شئت نصيحة صادقة، فعليك بالقرآن، اجعله حياة طفلك وأهم أهدافه، ستختصر الكثير من المسافات. وإياك وإهمال تعليمه الصلاة فإنها عماد الدين وسبب أول في صناعة

الهمة منذ الصغر، وسبب آخر لبرك عند الكبر وإدراك قيمتك، فلا أفضل ميراث تتركه لفلذات كبذك من حفظ كتاب الله وحفظ الصلاة.

ثم إن أهم إنجاز عليك تحقيقه في التربية، ترسيخ مفهوم التوحيد والتوبة والحسنات يذهبن السيئات.

إن استدراك الجيل الحالي والاعتناء ببنائه وصناعته صناعة إسلامية بطولية ماجدة هو أولوية قصوى لا تقبل أعمارًا ولا تسويغًا.

ومما كان يذكره علامة التاريخ عبدالرحمن الحجي؛ للطلبة في محاضراته الجامعية: "إنَّ فارسَ الإسلامِ قادمٌ كما أراكم، إنَّ لم يَكُنْ اليومَ فغدًا، وإنَّ لم يَكُنْ هنا فهناك، وإنَّ لم يَكُنْ بنا فبغيرنا، والله إنه قادم، لكني لا أعرف متى وأين وكيف".

الحذر من نقض الغزل

ثم إن تحقيق علو الهمة والنعيم ببركاته، والوصول لمرتبة الإنجاز المبهرة وقطع كل المسافات بتوفيق من الله، يتهدده أخطر ما يجب أن تخشاه على نفسك، إنه الظلم!

فهو باب الفتنة، وهو نقض الغزل وهو الخسران!

وخاب من كسب ظلمًا قولًا وعملاً.

وكفى بهذه الآية موعظة وزاجرًا (وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (الأنفال: 25).

قال الشيخ عبدالسلام بن برجس رحمه الله: "لا ريب أن ابتعاد المرء عن مواطن الفتن من كمال الحزم، بل من كمال الديانة"³⁶.

وكن صاحب حق وحدثني بعدها عن القوة.

(³⁶) قطع المرء ص (51).

فإن الحق يكسب صاحبه قوة، حتى أنه يُعجز الطاغية والمعتدي بشدة ثباته وصلابته. وصاحب الحق لا يخاف أبداً، ولا يكون له أن يخاف، إلا من ربه الواحد الأحد. بهذه المفاهيم انتصر المسلمون في كل زمان وانتصر كل مظلوم على ظالمه وانتصر الحق على الباطل.

ثم إن أسوأ حماسة.. الحماسة في باطل.
وأسوأ همة.. الهمة في دناءة.

فلا تسعى للتفاني قبل تفحص سلامة المنطلق، فليس كل تفاني مطلوب، وليس كل تفاني يبهرك، وكم من التفاني في باطل وظلم لا يزال وسيلة الضالين والظالمين، وتأمل قول الله تعالى (الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا).

وكل همة في الحق تقابلها همة في باطل.
وكما قال البشير الإبراهيمي: "من الأعمال ما يكون الفشل فيه أجدى من النجاح".

ومن المفيد تدبر قصص الدول المنحرفة، كدولة الباطنية الإسماعيلية والعبديين وغيرها عبر محور التاريخ، ولعل أبرز ما سمح بصعود هذه القوى: تحاوان أهل السنة في تقييم خطرهم، وإخلاص أتباعهم لدعوتهم.

والإخلاص للدعوى الضالة حقيقة وجب تسليط الضوء عليه فلولا هذا الإخلاص لما بقيت الفرق الضالة إلى اليوم. فهذا الإخلاص كان حاسماً في بقاء الفرق الضالة.

فكما أن للحق رجالاً يقدونه بالنفس والنفيس فإن للباطل كذلك رجالاً يقدونه بالنفس والنفيس، ولذلك تشتد فصول المواجهة وتطول.

فالعبرة ليست في الإخلاص للقضية بل في مصداقية وسلامة هذه القضية... وإلا فالمخلصون كثر!

وفي كل قوم جاهلية.. تخفيها المسرات وتفضحها الشدائد.
ولا تترسخ القيم بالخطب إنما بالتضحيات .
وكم من بطل أضحى رعيديًا وكم من جبان يأخذ بالصوت!
ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ثم إن مما يدخل في بناء الذات وتطويرها وصناعة الهمة، إلحاق الهزيمة بالشيطان وقهر النفس وعدم الانصياع لها عندما تؤز صاحبها على فساد أو ظلم أو هوى.
لذة هذا الانتصار على الشيطان والنفس الأماراة بالسوء هي مرحلة استلام القيادة، كالفارس يسوس الخيل لمضمار السباق، يتجاوز العقبات ويقطع المسافات كالطير.

ثم إن أي عمل أو إنجاز أحاطه الغرور والكبر فسد ومحقت بركته مهما بلغ ذروة النجاح .
ولذلك العبرة بالخواتيم.

ولم أر أهلك للمرء بعد الكفر مثل تزكية النفس !
فاحذرها، لعل الله يجبط عملك وأنت لا تدري... ولعل الله لم يقبله من أصله.

واحذر الغرور كل الحذر، فلا يهدم الطموح مثل الغرور!

ولا تركز إلى الرضا عن نفسك وتعهد استقامتها بالمراقبة والمحاسبة، فهناك شعرة دقيقة تفصل الملتزم المحق عن الفتنة، يكفي أن تلج قدمك خطوة واحدة في مستنقع الظلم لتحرم بركات الحق.

وكم أهلك الغرور بالحق صاحبه حين استهان بالتقوى وغمط حقوق العاملين.
وإن للحق موازين فإن اختلت فلا تلومن إلا نفسك مهما كانت بدايتك مبهرة.

ومن أراد الحل لكل نكساته فهو في الفرار إلى الله:

والفرار إلى الله يكون:

- بالخلوة.
- بوصول مع الله وتفكر تحلق معه الروح.
- بدعاء مخلص ينشد المعية والمعونة.
- باستغفار صادق يطهر النفس ويزكيها.
- بصلاة في جوف الليل وتلاوة تدبر وسجود توحيد خالص.
- بالانتهاء عما يفسد روعة الإيمان والتوبة.
- والإقبال على صالح الأعمال ووقود الهمة والمسابقة بالخيرات.
- بالصدق.

لقد سمع رجل حديثاً من الإمام مالك رحمه الله فقال: "هذا الحديث ينبغي أن يكتب بماء الذهب، فقال له مالك: بل ينبغي أن يكتب بماء العمل".
وبمثل هذه الأفهام تقام الأمجاد وتبلغ الأمم ذروة النجاح .

يقول محمود شاكر رحمه الله: "علا شأن الأمة واجتمعت يوم أن كان إيمانها قول وعمل فلما تحول إيمانها إلى قول وجدل سقطت وتفرقت".

همسة أخيرة،

لقد تأملت في الكثير من عبارات التقوى والخشية فأسرتني عبارة "أستحي من الله".
هذه العبارة لوحدها إن صدق قائلها، كافية لمنع كل شر وظلم وكافية لإذكاء روح علو الهمة والمسابقة بالخيرات!

فاستح من الله ولا تكونن مع الخوالب حين يكون الأمر صناعة الهمة وعلوها وعظمتها.

ثم تذكر: لدى المؤمن 3 مفاتيح للأبواب حين تنغلق فاجعلها دائما في جعبتك:

- (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)

- ما لا يدرك كله لا يترك جله
- (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

واعلم أن حال العاملين لهذه الأمة كمن يجدف تجديفًا مثابراً ليخرج قارب الأمة من أخطار التيارات الجارفة والشلالات الخطيرة والصخور المزعجة، والمسارات المغلقة، والغرق! فتأمل حين يجدف الجميع بنفس الهمة والإخلاص والهدف، لا يمكن أن تكون النتيجة إلا مبهرة، بمعية الله وفضله. ولا يكون ذلك إلا بخريطة الإسلام.

ولا أزال أكرر: علمني التاريخ أن القوة تكمن في قلب حامل السيف لا في سيفه... اعتنوا بقوة قلوبكم .

فلن تنهض أمة قلوب أبنائها ضعيفة وثقتهم بالنفس هزيلة وعزيمتهم للعمل منكسرة وآمالهم للتغيير محبطة !

إن القلب إذا تحصن بأسباب القوة صنع المعجزات في قلب الضعف لكن أين المؤمنون!
يقول البشير الإبراهيمي : "إن قوَّة الإرادة هي التي ملكت زمام العالم فيما ترؤن وتسمعون".

المجد تطلبه نفسي فتبلغه ولست أرضى سوى التحليق في القمم

وأما خلاصتي الأخيرة،

فلا تشغل نفسك بجمع كتب بناء الذات وتطوير القدرات وشحن الهمة وتنمية الإرادة، كل هذا وأكثر منه ستجده في الإسلام، فهو منظومة حياة مبهرة تحول الإنسان لمصنع عطاء وتضبط وقته لأفضل إنتاجية ومسابقة.

التزم فقط بالإسلام منهج حياة وبمفاهيمه السامقة دليل مسيرة إلى العلياء، ولك في التاريخ نماذج رائعة، لتصنع من نفسك قدوة مبهرة.

فالإسلام يعلم المسلم الانضباط بالمواعيد بشكل حازم خلال اليوم والشهر والسنة وكل الحياة فيصبح الإنسان قائداً لنفسه مروّضاً لها ويكسب بذلك خصائص إدارة الذات تلقائياً بحسن التزامه واستقامته وهي أهم أسرار النجاح والتفوق فتأمل: خمس صلوات في اليوم، صيام شهر رمضان، أداء زكاة الأموال والفطر فضلاً عن الانضباط في السلوك، كالحجر في الوباء والصدق والأمانة والوفاء والعدل وأداء الحقوق، والإنفاق والسعي في تحقيق قوة الفرد والأمة، وغيره من عبادات الجوارح والمعاملات والعبادات القلبية الكثير الكثير، وكله يصب في دائرة سر تفوق الإنسان في الدنيا والآخرة.

إن الإسلام دين حركة وعمل وتفوق وازدهار، ففي الحديث الصحيح: "الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنْ لَوْ تَفْتَحَ عَمَلِ الشَّيْطَانِ".

وفي الحديث الصحيح أيضاً، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَحْتَطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ؛ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلًا، فَيَسْأَلَهُ، أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ".

فتأمل كيف جمع الإسلام فضل العمل في الدنيا والآخرة معاً، كيف قرن النجاح في الدنيا مع الآخرة، كيف حرص على حفظ كرامة الإنسان ليقوم بدوره الريادي، خليفة الله في الأرض، كما قال المنفلوطي: "في الإسلام خلق الله الإنسان ليكون خليفته في الأرض، وفي الحضارة الغربية ليس الإنسان إلا حيواناً متطوراً". فتأمل الفرق.

واعلم أن صلاح ما بينك وبين الله البداية والنهاية في كل مشروع ترجو النجاح فيه والقبول، ومعالم ذلك: الصدق مع الله سبحانه، ونية خير لم تلوث بخبيث، واجتهاد تُعذر به أمام الله.

ولا يبقى في ضمير الحيّ إلا تلك اللحظات الصادقة من إقبال أو إنابة أو إحساس. تدفعها عجلة الزمن إلى مصائر الحق .. فمن فرط في حبل الصدق، فلا ينتظرن السبق أو الفوز!

قال جلّ في علاه (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * هُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

وقال سبحانه (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)..

وإن كنتُ وصلت لآخر رحلة صناعة الهمة إلا أن شعور التقصير يؤلمني، والحاجة لطرح المزيد تؤرقني، وعزائي، قول شاكر رحمه الله: "وما كلُّ ما تُحْسِنُهُ واضِحًا في نَفْسِكَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُحَسِّنَ الْإِبَانَةَ عَنْهُ، ورحم الله إمامنا الشافعي؛ فقد قال عندما سُئِلَ عن مسألة: إِنِّي لِأَجِدُ بَيَّأَهَا فِي قَلْبِي، وَلَكِنْ لَيْسَ يَنْطَلِقُ بِهَا لِسَانِي!".

فأرجو أن أكون قد وفقت في غرض أهم الفوائد ومعالم صناعة الهمة، فقد رأيته بحرًا لا ساحل له وحاولت تقديم المختصر المفيد قدر المستطاع، فما كان من صواب وتوفيق فمن الله وحده سبحانه وتعالى، وما كان من خطأ أو زلل أو نسيان فمني ومن الشيطان الرجيم، أعوذ بالله منه، وأستغفر ربي وأتوب إليه.

وختامًا،

سلام الله على كل مسلم ومسلمة ومؤمن ومؤمنة في سعيهم لعظم الهمة، ورضي الله عن كل مسابق ومسابقة قد أدركا المهمة، والحمد لله رب العالمين، وصلّ اللهم وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه واستن بسنته إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا.

المراجع

- علو الهمة لمحمد إسماعيل المقدم.
- حياتك من الفشل إلى النجاح سيد صديق عبد الفتاح.
- مفهوم النفس الإنسانية في الفكر التربوي الحديث، دراسة تحليلية في ضوء الفهم المعاصر لها لمحمد درويش.
- الطريق إلى الصحة النفسية عند ابن قيم الجوزية وعلم النفس لعبد العزيز بن عبد الله الأحمد.
- الهمة العالية معوقاتهما ومقوماتها للشيخ محمد بن إبراهيم الحمد.
- خصائص شخصية المسلم في كتابات ابن القيم لمحمد محروس الشناوي، رسالة التربية وعلم النفس الجمعية السعودية للعلوم التربوية والنفسية العدد 5.
- صلاح الأمة في علو الهمة للدكتور سيد بن حسين العفاني.
- الهمة طريق إلى القمة، لمحمد بن حسن بن عقيل موسى.
- تعريفات الصحة النفسية في الإسلام، مرسى كمال إبراهيم، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، الكويت.
- القرآن وعلم النفس لمحمد عثمان نجاتي.
- الحديث النبوي وعلم النفس لمحمد عثمان نجاتي.
- علم النفس الدعوي لعبد العزيز النغمشي.
- الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين.
- الآثار للبشير الإبراهيمي.
- كتب ابن القيم (مدارج السالكين، الداء والدواء، مفتاح دار السعادة، إغاثة اللفهان، الروح، روضة المحبين ونزهة المشتاقين، الوابل الصيب من الكلم الطيب، الفوائد، الطب النبوي).
- صيد الخاطر لابن الجوزي.
- وحي القلم وأوراق الورد للرافعي.
- جمهرة مقالات محمود شاكر.

- فصول اجتماعية والذكريات لعلي الطنطاوي.
- درس عن قوة الإرادة وعلو الهممة للشيخ صالح المنجد.
- درس عن علو الهممة للشيخ سليمان العلوان.
- مقالة جسر التعب لإبراهيم السكران.
- الراهب الذي باع سيارته الفيراري للكاتب روبين شارما.
- العادات السبع للناس الأكثر فعالية لستيفن كوفي.
- كتاب السطحيون لنيكولاس كار .
- كتاب «دع القلق وابدأ الحياة»، تأليف ديل كارنيجي وترجمة عبد المنعم الزيايدي.
- كتاب النغزة للكاتبين ريتشارد ثالر وكاس سونستين.
- كتاب نجوم على الطريق، د. ليلي حمدان.